أسامة غريب

دار الشروق

همام وإيزابيلا

قصة غرام وانتقام.. بغباوة

رسوم عمرو الكفراوي

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

همام وإيزابيلا

قصة غرام وانتقام.. بغباوة

الكاتب: أسامة غريب

إهداء..

إلى أمي التي قالت لي زمان: «اللي يضربك.. اضربه». وإلى أبي رحمه الله الذي قال لي: «المسامح كريم». وليغفر لي منهما الذي لم آخذ بنصحه، ولم أسمع كلامه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الأولة مين يحقق.. والمحقق ديب

والتانية داء الخيانة.. مش لاقي له طبيب

والتالتة آه م الآهات.. يا جرح إمتى تطيب

نجيب سرور

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة

ما يمكن لثلاثين عامًا أن تفعله

لا يَقتُلُ اللَـهُ مَن دامَت مَوَدَّتُهُ

وَاللَـهُ يَقتُـلُ أَهلَ الغَـدرِ أَحيـانـا

ماذا يمكن أن تفعل ثلاثون سنة من الجهل والقسوة والبلادة، وموالاة الأعداء والغدر بالأهل، وطعن الأشقاء والأصدقاء؟

يمكن لهذه السنوات القليلة أن تفعل الكثير.. يمكنها أن تهدم ممالك وتقيم على أنقاضها ممالك جديدة.. يمكنها أن تغير عقيدة بأخرى وتمحو إيمان الناس بكل ما عاشوا عمرهم يؤمنون به!

يمكن لهذه السنوات الثلاثين أن تنشر الخيانة بين الناس وتجردهم من النخوة والشهامة، وتنزع قيم النجدة والغوث، فتجعلهم يحذون حذو حكامهم.. فيهرعون إلى الأعداء يلوذون بهم ويعملون في خدمتهم ولا يرجون من الدنيا سوى رضاهم.

يمكن لثلاثين سنة أن تقضي على الأخضر واليابس، وأن تجعل أعزة أهل البلاد أذلة.

في التاريخ الماثل بقوة والذي لا تغيب أحداثه عن ناظري، حدث هذا على نحو درامي مأساوي فظيع عندما تداعت قوائم الدولة العربية الإسلامية في الأندلس في الفترة ما بين عامي ١٢٣٠ و١٢٦٠ ميلادية. في هذه السنوات الثلاثين فقد المسلمون حوالي سبعين في المائة من دولة الأندلس التي كان قد مضى على إقامتها حينئذ حوالي خمسة قرون ونصف، كانت مليئة بالبناء والتشييد، والزراعة والصناعة، وابتكار طرق حديثة في الري، وإقامة المدائن العامرة الذاخرة بالفنون والآداب، والفلسفة والشعر، والطب، والفلك، والرياضيات، وذلك قبل أن تسقط تمامًا بعد حوالي ٢٥٠ عامًا في سنة ١٤٩٢ بتهاوي غرناطة آخر معاقل المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية.

إن المرء لا يتمالك نفسه من البكاء عند قراءة تاريخ الدولة الإسلامية في الأندلس، عندما يعرف أن جهدًا قليلًا كان كفيلًا بالإبقاء على هذه الدولة العظيمة حتى اليوم. ومن المؤسف أن هذا الجهد القليل كان أكبر من استطاعة ملوك الخور والهزيمة الذين وجدوا مصالحهم في إضعاف أوطانهم وإضاعة حقوقها.

عند قراءتي لسقوط قرطبة وبلنسية وجيّان وإشبيلية، وكلها كانت ممالك منيعة حصينة وذات شأن، فإنني أتذكر سقوط فلسطين وسقوط بغداد في أيدي الفرنجة، ويحزنني أنه كان من الممكن أن نمنع سقوطهما بقليل من الجهد، بل حتى بدون أي جهد.. فقط بالامتناع عن دعم الأعداء ومؤازرتهم بالمال والعتاد و.. «الرجال». هذا إذا حسبنا من يحارب أشقاءه رجلًا!

كل صور الخيانة التي عرفناها في أيامنا السعيدة هذه عرفها أهل الأندلس مثلنا، ولم يستطيعوا إيقافها مثلنا، فضاعت دولتهم.

عندما نتحدث عن عدوان الفرنجة على أمتنا في يونيو ١٩٦٧، نجد أن من بين الحكام العرب من قدم دعمه اللامحدود للإسرائيليين نكاية في حكام مصر! والمرء لا يعرف هل يضحك أم يصرخ ملتاعًا وهو يتساءل: وما ذنب سوريا وأهلها والأردن وشعبه وفلسطين وما تبقى منها إذا كان حكام دولة عربية يكرهون حكام مصر ويسعون لإلحاق الدمار بشعبها إلى هذا الحد؟

نفس هذا حدث في الأندلس في أثناء السنوات الثلاثين التي أتحدث عنها، وأتصور أن هنالك من رجال الدين في ذلك الزمان من سجد لله شكرًا عند سقوط قرطبة وإشبيلية، كما فعلها رجل دين في عصرنا الحالي بعد أن ألحقت بنا إسرائيل هزيمة فادحة بالتعاون مع الحكام الذين يعشقهم وتربى في أحضانهم رجل الدين الشهير!

وعندما نتحدث عن حاكم عربي صعُب عليه أن يقوم المصريون والسوريون بالثأر من العدو الصهيوني في أكتوبر ١٩٧٣ وشعر بأن لزامًا عليه أن يخبر أصدقاءه (أعداءنا) بموعد الحرب، فأخذ طائرته وهبط بها عند الأعداء، وأطلعهم على ما لديه عشية اندلاع القتال.

إذا قرأت تاريخ الدولة العربية في الأندلس ستجد هذا الفعل نفسه قد حدث من قبل، وأن هذا الحاكم العربي الذي توجه إلى جولدا مائير وموشى ديان لم يكن الأول من نوعه، فهناك من سبقه بالذهاب إلى فرناندو الثالث حين كان المسلمون يهمّون بإلحاق الهزيمة بقواته.

وعندما نقرأ في الوثائق الأمريكية والإسرائيلية عن حاكم عربي ثالث كان يدعو العرب والمسلمين ويصر على إقامة اجتماعاتهم ومؤتمراتهم في بلاده، وكنا نحسب أن هذا الإصرار يعود إلى فرط إخلاصه لعروبته وإسلامه، ثم كشفت لنا وثائق الأعداء أنه كان يفعل ذلك من أجل أن ينقل الاجتماعات بما فيها من أسرار بالصوت والصورة على الهواء لأسياده في تل أبيب!

عندما نقرأ عن هذا فلنعلم أن الملك خايمي قائد مملكة أراجون كان يحظى بنفس الأفضلية، وكان يجد من حكام الأندلس من ينقل له ما يدور بين ملوك الطوائف وكأنه يجلس بينهم!

ستة مجلدات قرأتها بقلم العلامة الأستاذ محمد عبد الله عنان؛ الباحث العظيم الذي قام بتحقيق الروايات العربية والروايات الإسبانية التي كتبها المؤرخون على الجانبين عن الأحداث الجسام التي حدثت طوال الحروب التي لم تنقطع بين المسلمين وبين الإسبان والبرتغاليين. ستة مجلدات أورثتني ألف حسرة لدرجة أنني كنت أقرأ أحيانًا وأنا أكفكف دمع العين من فرط التأثر والألم.

لأكثر من سبعة قرون استمرت الحروب بين العرب والإسبان، كانت المدن في أثنائها تنتقل من يد العرب إلى يد الإسبان، ثم لا تلبث أن تعود للعرب قبل أن يأخذها الإسبان من جديد. سبعة قرون بين تقدم وتقهقر، انتصارات وهزائم.. لكن قوام

الدولة كان متماسكًا. لكن ثلاثين عامًا فقط من بين السبعمائة عام هي التي منحت الإسبان انتصارات مدوية لم يكونوا يحلمون بها.. ثلاثون عامًا جعلت فرناندو الثالث هو بطل الأمة الإسبانية بلا منازع، ذلك أن تهاوي أكبر المدن والممالك الإسلامية وسقوطها قد حدث في عهده وعلى يديه، وهو الأمر الذي جعل الإسبان يسبغون عليه القداسة ويحولون محاربًا دمويًّا مثله إلى القديس فرناندو!

ولا يسعني وأنا أقدم للقراء رواية همَّام وإيزابيلّا، التي تقع أحداثها في الثلاثين سنة تلك، سوى تقديم الشكر للأستاذ العظيم الراحل محمد عبد الله عنان الذي استقيت الأحداث التاريخية المحيطة بروايتي من كتابه القيّم «دولة الإسلام في الأندلس».

أما جريمة القتل التي تتشكل محور الرواية فهي حدث مكرر أيضًا يجد إمكانية حدوثه عند تهرؤ الدول والممالك واقترابها من السقوط.. ويصاحب هذا في العادة سطوع شمس الجريمة وعلو مقام المجرمين، في حماية الحكام المشروخين الذين تعميهم ملذاتهم وشهواتهم عن رؤية نبوءة الشاعر «بشار بن برد» وهو القائل:

لا يَقتُلُ اللَـهُ مَن دامَت مَوَدَّتُه

وَاللَـهُ يَقتُـلُ أَهـلَ الغَـدرِ أَحيـانـا

أسامة غريب

القاهرة- ٣٠ مارس ٢٠٠٩

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

غرام وانتقام

البشرة الشقراء واللحم الأبيض والعيون الملونة كان لهم الدور الأساسي في انهيار وسقوط الدولة العربية في الأندلس، حتى إن قصور الملوك والأمراء كانت تعج بالنساء الشقر. وكان التفاخر والتمايز بين ملوك الطوائف يكاد ينحصر في قدرة كل منهم على حيازة أكبر قدر من النحور والنهود والأذرع والسيقان البيضاء المصقولة المشربة بالحُمرة للشركسيات والروميات والشيرازيات وغيرهن.

وقعت أحداث قصتنا في قضاء مجاور لإشبيلية في أواخر عهد السلطان «البيكيكي» الذي ضعفت قبضته على البلاد والتفت حوله حاشية من الوزراء ورجال البلاط والتجار، ولكل منهم أطماعه في قضم قطعة من لحم السلطنة أكبر من تلك التي في فم زميله. لهذا فقد كثر بينهم الدَّس والوقيعة لدى السلطان الذي كان يدير التنافس بينهم على نحو يزكيه ويبقي أواره مستعرًا، ممسكًا بين يديه بالميزان الذي يضمن أقصى عداله في نشر الفساد وتوزيعه بينهم بالقسط. في هذه الأجواء برز نجم بطلنا «همَّام بن عليش الكوارشي»، واقترب من قلب العرش وعقله، لهذا فقد أقطعه السلطان مساحة مهولة من الأرض بدون مقابل بنى عليها مدينة عظيمة أسماها «مدينة السحاب»، وباع بيوتها الجميلة التي تحوطها الحدائق الأندلسية الرائعة وتتوسطها النوافير للأمراء والكبراء والأعيان، وحقق من ورائها ثراءً عظيمًا. كان همَّام مثل غيره من شباب التجار المرتبطين بالقصر مولعًا بالنساء، وكان التنافس على أشده بينه وبين غريمه «عز الدين أنكش» صهر السلطان وزوج ابنته ريحانة الذي كان يعمل بتجارة الخردة، وقد نمت ثروته بسرعة الشياطين، لكنه لحسن حظ همَّام كان مشغولًا إلى جانب النساء بطموح سياسي ليس له سقف استغرق جُل وقته، الأمر الذي مكن همَّام بن عليش الكوارشي من الفوز بعدد لا يستهان به من الجواري ملأن عليه حياته أنسًا وبشرًا وسرورًا. حتى كان اليوم الذي وقعت عيناه على الحسناء «إيزابيلّا»، فنظر إليها نظرة أورثته ألف حسرة، وعقد العزم على الظفر بها مهما كلفه الأمر. كانت إيزابيلّا ابنة التاجر ألفونسو الذي عُرف باسم «تمام الرومي»، وقد قدمت مع والدها وشقيقها من بلدة «مقريط» (مدريد حاليًا) للغناء في قصور السلطنة حيث تمتعت بصوت عذب شهد له كل من استمع إليها، وكانت ذات غنج ودلال. وكانت إيزابيلّا مفتونة بأشعار أميرة الأندلس الشهيرة «ولادة بنت المستكفي» ودأبت على الغناء من أشعارها، لكن والدها على العكس من أبي ولادة لم يكن «مستكفيًا» من المال أبدًا، وكان يعتبر إيزابيلّا استثمار عمره، لهذا فقد زوّجها من رجل عربي يقال له «عتوقة» ظانًا أنه ذو ثراء، لكن خاب مسعاه عندما عرف أن عتوقة مفلسًا ويريد أن يحقق الثراء هو أيضًا من خلالها، فهرب بها إلى السلطنة أملًا في الحياة الناعمة بمدينة التجار. اشتهرت إيزابيلّا وذاع صيتها بعد أن غنت من أشعار ولادة الأبيات التي تقول:

أنَا واللهِ أصْلحُ للمعَـالي

وأَمْشي مِشْيتي وأَتيهُ تيهـا

وَأُمكِّـن عاشِـقي من صَحْـن خَـدّي

وأعـطِي قبلتـي مَنْ يَشْتهيهـا

طار لب عليش عندما استمع إليها وتمكن غرامها من فؤاده، فعرض على أبيها أن ينتقل بعائلته للعيش في كنفه بأحد القصور التي يملكها حيث سيبسط عليهم رعايته وحمايته. في هذا القصر قضى همَّام بصحبة إيزابيلّا أجمل أيام العمر، وعندما عرف أن زوجها عتوقة يسعى وراءها طمأن أهلها بألا يقلقوا لأنه سيتكفل به، ويقال إنه دفع للزوج مبلغًا كبيرًا من الدنانير حتى يقوم بتسريح إيزابيلّا بإحسان، ويقال أيضًا إن عتوقة أخذ المال ولم يلتزم بتطليقها، مما جعل همَّام يفقد صوابه ويهدده بالقتل. في الوقت نفسه كان تمام الرومي يتقاضى جُعلًا شهريًّا ضخمًا من مضيفه الكريم، وكانت الحسناء الرومية تغرف من الجواهر واللآلئ وتعُب من المال عبًّا. وحدث في أحد الأيام أن كان تمام الرومي عائدًا من رحلة إلى قرطبة، وفي الطريق استوقفه العسس وقاموا بتفتيشه حيث عثروا معه على خمسين جرامًا من القلقشند المطحون. اعترف تمام بحيازة القلقشند بقصد التداوي، وتم تحويله إلى التحقيق. عندما علم التاجر همَّام بما حدث أسرع بالتوسط له عند كبير البصاصين فأطلق سراحه. وفي يوم آخر وصل إلى سمع همَّام أن جريمة قد وقعت في قصره فأسرع يستطلع الأمر واكتشف أن «خورخي» شقيق إيزابيلّا قد قام بإلقاء إحدى الجواري من فوق سطوح القصر بعد أن قضى منها وطرًا، وأن المسكينة قد لقيت حتفها على الفور. ومرة ثانية يتدخل الشهبندر همَّام بن عليش الكوارشي لحماية خورخي ومنع يد العدالة من الوصول إليه. بمرور الأيام صارت إيزابيلّا هي كل حياته، واشتدت غيرته عليها وتقييده حركتها، فإذا عاد ولم يجدها اشتعل غضبًا، وإذا نظرت لأحد جن جنونه. وبالنسبة لها لم يكن هو أكثر من الممول النافذ المطاع الذي يستطيع تحقيق الأحلام المادية، أما الحب فشيء آخر. لهذا فقد ضاقت بجنونه واشتاقت للحرية والشهرة والانطلاق. وذات يوم صحا فلم يجدها. كانت قد رحلت وانطلقت إلى بلاد الغال. أرسل لها الرسل يستعطفونها فلم تستجب. عرض عليها مخزونه من الذهب والياقوت فما ألقت بالًا، ثم علم من عيونه المنتشرة أنها على علاقة برجل وأنها تنفق عليه بسخاء. هنا كان لا بد من وقفة.. وقفة يستجمع فيها كل ما يستطيع من زرقة الأنياب القديمة التي نسيها بعد أن رقق الحب قلبه حتى إنه سما بمشاعره ولم يعد يكره عز الدين أنكش غريمه العتيد! أخذ همَّام قرارًا لا رجعة فيه بأن يقتلها حتى لا تكون لغيره. قضى الليل في حمام الغوطة بصحبة أصدقائه ورجاله. من بين البخار المتصاعد استمع إلى اقتراح من صديق أن يستعين بأحد الرجال الأشداء ممن يعملون في خدمته لإنجاز المهمة. اقترحوا عليه اسم «المطجّن» البصاص.. كان المطجّن في السابق من ضمن فرقة الجندرمة بالمدينة وعُرف بالقسوة والشراسة، ولهذا أوكلوا إليه العمل على حماية الأعيان وأبنائهم. لكن مع اندماجه وتواجده المستمر في صحبة الأثرياء وعائلاتهم، حيث الأسمطة الممتدة والأصناف الفاخرة من الطعام والشراب واللهو، كره المطجّن وظيفته وتاقت نفسه إلى حياة الدعة والترف، حيث يستطيع أن يشرب من أقداح البورجوندي كما يشاء دون أن تصده عن الشراب مقتضيات الوظيفة. لهذا فقد طلب من كبير البصاصين إعفاءه.. وقد كان. بعد هذا عمل في واحدة من وكالات همَّام بن عليش الكوارشي، وأوكلت إليه العديد من المهام فأنجزها على أحسن وجه. لهذا فقد أرسله همَّام إلى بلاد

الفرنجة لمتابعة إيزابيلا ومحاولة القضاء عليها. وكانت الرسائل بينهما لا تنقطع عن طريق الحمام الزاجل. عاد المطجّن من رحلته وأخبر مخدومه بأن الجميلة قد غادرت بلاد الغال واستقرت بإمارة الساحل البندقي عند الأمير «فارس المختوم» المعروف بفروسيته وعشقه لسباقات الخيل والهجن. ازداد عليش تصميمًا على قتل إيزابيلّا حتى لو اختبأت في قمقم. قام بتزويد المطجّن بالمال ودفع له مليون جنيه مجيدي ومليونين من الدنانير الذهبية، عدا عن أربعين صاعًا من الزمرد، ودعا له بالتوفيق. وصل المطجّن إلى مدينة الحميراء بالساحل البندقي ولم يُضِعْ وقتًا. قصد بيتها ودار حوله، ودرس مداخله ومخارجه ثم قضى ليلته في خان «أبو منصور»، وفي الصباح قصد السوق حيث ابتاع سكينًا باترًا ذا نصل شديد المضاء، ثم اشترى عمامة وعباءة من الحرير واتجه صوب المنزل الذي استأجرته وصعد الدرج وتظاهر بأنه السقا قد حضر ليملأ الأزيار والأواني. فلما اطمأنت إيزابيلّا وفتحت الباب عاجلها بطعنة في صدرها ثم استمر في الطعنات، ومن بين مقاومتها اليائسة قام بحز عنقها فسقطت على الأرض في بحر من دمائها. وقام المطجّن بتغيير ثيابه الملوثة ووضعها في قفة ألقى بها في خرابة خلف البيت. بعد أن عاد إلى النُزُل الذي يقيم فيه أطلق حمامة رابطًا في ساقها رسالة إلى همَّام يقول فيها إن المهمة أنجزت.

تم اكتشاف الجريمة في الحميراء في فترة وجيزة، وتم استنفار جميع البصاصين والعسس بالمدينة، وبعد عدة ساعات استطاعوا تحديد القاتل وانطلق فرسانهم في أثره، لكنه كان قد عبر الحدود وعاد إلى الديار. كانت شرطة الحميراء قد أسقطت بعض الحمام الحامل للرسائل بين عليش والمطجّن، ثم أرسل حاكم إمارة الساحل البندقي بالقضية كاملة إلى صديقه السلطان البيكيكي وطالبه بالقبض على المجرمين. في هذا الوقت قامت قوات الجندرمة بالقبض على المطجّن، فاعترف بكل شيء. وسرت شائعات بين الناس في المدينة بأن عليش أكبر من القانون بحكم قربه من السلطان وصداقته بابنه الوحيد وولي عهده «حسّان». لكن السلطان البيكيكي فاجأ عموم الناس في السلطنة وأصدر أوامره بالقبض على همَّام بن عليش الكوارشي. وانعقدت المحكمة برئاسة قاضي القضاة «ابن عقيل الأندلسي»، ووقف همَّام في القفص ولاحت منه التفاتة إلى المطجّن الذي ابتسم له، لكن هذا لم يبادله الابتسام ووقف واجمًا ولسان حاله يقول: «الله يخرب بيتك.. أوديت بي وأضعتني يا غبي!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ماذا بعد القبض على المطجّن والكوارشي؟

انتفضت ممالك وإمارات الأندلس حزنًا ولوعة بعد أن علم الناس بمقتل المغنية إيزابيلّا ابنة تمام الرومي، وقضائها نحبها بهذه الصورة البشعة على يد القاتل المأجور المطجّن البصاص. وقد رثاها الشعراء بأجمل القصائد، وأخذ الرواة يحكون سيرتها على الربابة، ويرددون أغانيها التي شاعت ومنها نونية ابن زيدون الشهيرة:

أَضحـى التّنـائي بَديـلًا مِن تَدانينـا

وَنابَ عَـن طِيبِ لُقيانا تَجـَافينـا

وحصلت فتنة بين الناس، وزاد من قتامة الصورة العلم بأن الجريمة قد تمت لحساب همَّام بن عليش الكوارشي، الثري المترف ابن الأثرياء وصاحب المدائن العامرة. وأسقط في يدهم لإدراكهم أنه يقع تحت الحماية المباشرة للسلطان البيكيكي نفسه وولي عهده حسّان. لكن قرار السلطان بالقبض على عليش (وهو اسم التدليل الذي عرف به همَّام بين أصدقائه) نزل على الناس بردًا وسلامًا. وقد حار الناس في تفسير أسباب احترام القانون السلطاني في واحدة من المرات النادرة التي تحدث على زمن البيكيكي، والتضحية بابن الأكابر الذي كثيرًا ما انتهك قانون السلطنة من قبل دون أن تمتد إليه إصبع. وتناقل الناس في ذلك روايات شتى، لكن أكثرها قربًا من الحقيقة كانت الرواية التي عزت القبض على عليش إلى التدخل الخشن لفارس المختوم حاكم إمارة الساحل البندقي الذي وقعت الجريمة على أرضه وبين ظهران أهله. ومن المعروف أن الإمارة في عهده قد شهدت حالة من السلام أتاحت له أن يقوم بالكثير من أعمال التشييد والبناء، فانتعشت التجارة واتسعت الأسواق وازدهرت الفنون وعَمَّ الرخاء بعد ما قام بتشييد مدينة الحميراء فوق جزء من البحر فكانت مقصدًا للأثرياء من كل البلاد للاستجمام وارتياد الأسواق والتمتع بالغناء والرقص والطرب، وكانت أيضًا مقصدًا للجواري اللاتي فررن من موسكو والمدن المجاورة في عهد «إيڤان الأول» المعروف بـ«إيڤان كاليتا» وهو غير «إيڤان الرابع» المشهور باسم «إيڤان الرهيب»، وكانت بعضهن - للغرابة - يتمتعن بعلم كبير في الرياضيات والكيمياء إلى جانب فنون الرقص والخلاعة!

لم يفهم المطجّن البصاص وهو يرتكب جريمته الشنعاء أنه يزلزل كيان الإمارة الهادئة التي لا تعرف جرائم من هذا النوع. وزاد الطين بلة ما رصدته إمارة الساحل البندقي من علامات لا تخطئها العين لمحاولة إخراج الكوارشي من الموضوع وتحميله للمطجّن وحده. ومن هذا ما قام به المنادون الذين انتشروا في المدن يذيعون بين الناس خبر الوقف الخيري الكبير الذي وقفه همَّام الكوارشي من أجل الفقراء، كذلك عزمه على إنشاء وكالة الوداد والعفاف ومنح بيوت للفقراء يتزوجون بها في مدينة السحاب! من أجل هذا كله فقد تعامل فارس المختوم مع الأمر بأقصى جدية ممكنة وأقسم ألا يسمح بأن يفلت الجناة من العقاب، واعتمد على أياديه البيضاء السابقة على السلطنة، كذلك راهن على الحكمة المعروف بها

السلطان البيكيكي الذي نجح دائمًا في تعويم البلاد وسط الأنواء والخروج بالعرش سليمًا وبالبلاد كسيرة مثخنة بالجراح.

أتت الرياح إذن بما لم تشته السفن، ووجد السيد همَّام بن عليش الكوارشي نفسه في القفص متهمًا بجريمة عقوبتها الإعدام وهو من هو؛ عين أعيان إشبيلية، فخر الإمارة وأمل العائلة وصديق السلطان وولده. ما الذي حدث؟ هكذا ساءل نفسه وهو ينظر نحو المطجّن في القفص. لقد كان يتصور أن المطجّن البصاص هو رجل المهام الصعبة القادر على اجتراح المعجزات، وكان يعتقد أن معاركه السابقة في خدمة الأمراء ومهامه التي قام بها في الشرطة قد أكسبته حنكة ودربة وقدرة على التخطيط السليم، لكن يبدو أن الكوارشي قد أسرف في تقديره للمطجّن فإذا هو في حقيقته خائب مذعور، يملك حقًّا قلبًا من صخر وضميرًا ميتًا، لكنه لا يملك عقلًا على الإطلاق. وتعجب همَّام كيف يترك هذا القاتل المحترف وراءه أذيالًا بطول المدينة، ودلائل تكشف عن شخصيته بسهولة وهو الذي اشتغل بفرقة الجندرمة؛ أقوى فرق الشرطة وأكثرها تنظيمًا، تلك التي عصفت بالسكان وروّعتهم ونشرت بينهم الفزع والرعب. ترى هل أبطره المال وأسكرته النعمة؟ هل فقد حسه الأمني كبصاص عتويل وضاع منه حذره الغريزي وثقته المعدومة في كل البشر؟ وكيف بالله يعترف بالجريمة بهذه السهولة ويقر بكل شيء ويتطوع بسرد تفصيلات ما كانوا يعرفونها أبدًا لولا اعترافه الغبي؟! هل خشي أن يُجلسوه على المقشرة ويذيقونه ألوانًا من العذاب هو يعرفها كلها، وبعضها ـ على أي حال ـ مسجل باسمه في كتاب الرعب الذي كان دليلًا يتعين دراسته لمن شاء أن ينتمي لفرقة الجندرمة؟ هل اشترى نفسه بالاعتراف وحمى جلده من السلخ كما حمى أباه المسن من التنكيل؟

لم تكن هذه هي كل الأسئلة التي نهشت الفتى المدلل الذي كان الولد الوحيد للتاجر الشهير الكوارشي صاحب الوكالات والمدائن، وكان همَّام هو الأمين على ثروة العائلة وعلى شقيقته الوحيدة البندريّة. كان السؤال الجارح الذي يفترسه هو: «كيف هان على السلطان البيكيكي فوافق أن يلقى به في السجن بعد أن كان من ندمائه المخلصين ومن أقرب الأصدقاء لحسّان ابنه الوحيد ووريث عرشه؟». لا شك أنه تعرض لضغوط كثيفة، ولا شك أيضًا أنه لن يتركه في محنته هذه طويلًا.. هكذا حدّث نفسه. لقد كان قانون السلطنة غير المكتوب يقضي بأن رجال الحاشية لا خوف عليهم ولا هم يُسجنون مهما فعلوا، مهما أجرموا وعاثوا في الأرض فسادًا وقتلًا وسلبًا ونهبًا، وهو على أي حال ليس القاتل الأول ولن يكون الأخير. هل نسوا «أحمد أبو العيون» تاجر البلاط (بلاط السلطنة وبلاط الأرضية) الذي قتل شابًّا بريئًا عند شاطئ جبل طارق كان كل ذنبه أنه أراد أن يستحم في البحر فصدمه بالمركب الذي ترك قيادته لطفله الصغير؟ هل نسوا «مديح أبو إسماعيل» القرصان الذي كان يجوب البحار ويجلب الغنائم والأسلاب للسلطان عندما أغرق في البحر ألفًا من أهل «سبتة» ثم قبض الثمن من «أوجستين لويد»؟ أم تراهم قد نسوا «مسرور بن هانئ» طبيب القصر الذي عالج الناس بحقن شرجية ملأها باللبن المخلوط بروث البهائم. هل نسوا الوالي «يوسف» الذي استنبت شتلات مسمومة

جلبها من الملك «فيليب» أعدى أعداء المسلمين فنشرت الطاعون بين الناس وحصدت من الأرواح في زمن السلم ما عجزت عنه الحروب؟ كل هؤلاء وغيرهم، هل حاكمهم أحد؟ هل وقفوا في قفص الاتهام مثله وصاروا مضغة في أفواه الحرافيش والجعيدية والزعر؟ فمتى تغير القانون إذن الذي يحكم العلاقة بين السادة والأعيان وكبار المُلاك في السلطنة ويمنع محاسبتهم مهما فعلوا؟ كان همَّام يجز على أسنانه والأسئلة تنهشه نهشًا وهو يتذكر عز الدين أنكش زوج ريحانة ابنة السلطان وعدوه اللدود الذي يشبه الحية الرقطاء في لدغته، والذي لم يكف عن الكيد

له عند السلطان البيكيكي حتى إنه أعلن في مجلس التجار عن حجم ثروة همَّام التي صنعها من بناء مدينة السحاب مقارنة بمكاسبه هو المحدودة وقوافله التي كثيرًا ما تتعرض للسلب علي يد قطاع الطرق، وأيقن أن أنكش لا شك يقف بقوة وراء هذا كله. ثم تذكر إيزابيلّا الجميلة التي لم يعرف الحب إلا بين ذراعيها وفاضت عيناه بالدمع وهو يتذكر أيامه معها ويستعرض كل ما فعله من أجلها، وعصف به التساؤل المرير: ماذا كان ينقصه حتى تحبه إيزابيلّا كما أحبها؟ وما كان ضرها لو بقيت معه ولم تأخذ أمواله وترحل بليل؟ إذن لحقنت دمها الذي سال وحفظت حياتها التي ضاعت وبقيت في قصره تغني له وحده من قصائد ابن زيدون وتملأ حياته بالسعادة؛ لكنها اختارت أن تبيعه وتنفق أمواله على بلطجي يزعم أنها زوجته ويريد أن يرثها، مثله مثل زوجها الأول عتوقة الذي يصر هو الآخر على أنها زوجته هو وحده. لكم تمنى عليش من قلبه أن تكون هذه الأحداث مجرد كابوس يصحو منه فيجد نفسه في القصر ومحبوبته في حضنه.. لكن أيقظه من خيالاته صوت سعال المطجّن بجواره في القفص، ونظر نحوه فوجد نفس الابتسامة ما زالت ترتسم على وجهه فشعر بغضب شديد وودَّ لو استطاع أن يفتك بذلك الغشوم الذي أضاع نفسه وأضاع معه همَّام بن عليش الكوارشي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

المحاكمة

في اليوم الأول للمحاكمة صحت مدينة «قرمونة» عن بكرة أبيها، وبدأ الناس يتوافدون إلى «دار بخشوان» على أطراف المدينة وهي مقر قاضي القضاة ابن عقيل الأندلسي، كانت عبارة عن حصن بناه «المرابطون» لحماية المدينة، والآن بعد توقيع الصلح مع ملك قشتالة تم اتخاذه مقرًّا لدار القضاء، وفي أكبر قاعاته ستجري محاكمة التاجر همَّام بن عليش الكوارشي والمطجّن البصاص. المكان فسيح ويسمح لأعداد غفيرة من الجمهور بالجلوس ومتابعة المحاكمة. كان رجال همَّام والمنتفعون بقربه قد بذلوا جهودًا مضنية عقب القبض عليه من أجل جلب تعاطف العامة معه، وسلكوا في ذلك مسالك عدة، إذ دفعوا بسخاء للحكائين ورواة السير في المقاهي والأسواق، كما أجزلوا العطاء للمنشدين وعازفي الربابة حتى يشرعوا في التأليف السريع للأغاني والموشحات التي تتغنى بكرم وجود وسلامة أصل همَّام الكوارشي وطيب محتده. أما القاتل المأجور المطجّن البصاص فلم يجد من يغني على الربابة من أجله.. فالمجرمون درجات. ولقد شخص المطجّن ببصره نحو الأفق الممتد من داخل القفص انتظارًا لقدوم قاضي القضاة. تذكر المطجّن نشأته الأولى وملاعب صباه في «درب التركماني» حيث ولد وعاش طفولته، فلما اشتد عوده وبلغ الحلم، ألحقه أبوه بخدمة أحد الوجهاء، فعانق الأبهة منذ الصغر ونقم على الظروف التي وضعته في خدمة الأعيان، وتمنى أن يأتي اليوم الذي يعمل عنده حراس أشداء يقومون هم على خدمته والسهر على راحته بدلًا من أن يظل طوال حياته عبدًا لمن لا يدانونه قوة وسعة حيلة، وظل هذا الحلم يلازمه حتى بعد أن التحق بفرقة الجندرمة وعاث مع قواده وزملائه بطشًا وتنكيلًا بالعباد، ولم تكن المبالغ التي يتحصل عليها من البرطلة وفرض الإتاوات في الأسواق تشبع نهمه إلى المال. كان يرى التجار الكبار يمتلكون البلد بما عليه ويبدلون النساء كما يبدلون الأردية، ورآهم كلهم تحت مظلة السلطان يُظهرون الخضوع لمملكة قشتالة وملكها فرناندو الثالث ويعملون في خدمته ويتآمرون ضد المسلمين. وكانت اللحظة الفارقة في حياته عندما وجد السلطان البيكيكي يشارك بقوة من فرسانه في حصار قرطبة كجنود في جيش القشتاليين مما سهّل سقوطها السريع، فقرر المطجّن أن يتأسى بأسياده ويفعل أي شيء مجنون في سبيل المال. ولم يكن البصاص يُظهر للنساء نفس النهم إلى المال، إذ اعتقد أن الثراء عندما يجيء ستأتي معه الحسناوات طائعات، فقام بتأجيل الرغبات الطبيعية إلى ما بعد الثروة! لكن كانت متعته الأثيرة هي تناول أقداح البوظة في دكان «أليخاندرو»، ثم وضعته الأقدار في خدمة الكوارشي، وتذوق البورجوندي الفاخر ثم حظي دون غيره بثقة الشهبندر، والأغرب أنه وقع في غرام شقيقته البندريّة وهذا ما لم يتحسب له فشغل بها وأصبحت هواه وحلمه المستحيل، وكانت الوحيدة التي خفق لها قلبه، وربما كان ارتكابه لجريمة قتل المغنية إيزابيلّا في أحد أوجهه هو الرغبة في التقرب إلى آل الكوارشي علّه يصاهرهم في يوم من الأيام ويأخذ دُرتهم المكنونة إلى بيته! وظن أن تحقيق الحلم قد صار إليه أقرب مما يظن، فإذا بحبل المشنقة هو القريب!

دخل القاضي ابن عقيل إلى المحكمة فنادى الحاجب بصوت جهوري وقام الجمهور وقوفًا لقاضي القضاة الذي كان ذا شموخ ومهابة وطلة تبعث على التقدير، وكان معروفًا بالنزاهة والصرامة في الحق. نادى الحاجب على الشاهد الأول: «أبو الحسن المراكبي». تقدم أبو الحسن من القاضي وأقسم أن يقول الحق. القاضي: «ماذا تعرف يا أبا الحسن عن القضية؟».

أبو الحسن: «لقد عهدوا إليّ يا فضيلة القاضي بتمحيص عدد كبير من الرسائل باعتباري قائدًا لفرقة الجندرمة». قاطعه القاضي: «أية رسائل؟». قال أبو الحسن: «كانت هذه الرسائل قد أتت بصحبة كبير البصاصين بإمارة الساحل البندقي، وهي عبارة عن مراسلات متبادلة بين همَّام الكوارشي وبين البصاص المطجّن عثروا عليها بأرجل الحمام بعد أن أطلقوا نبالهم عليه». واستطرد الشاهد: «وهناك بعض الرسائل كان يغطيها الدم تم العثور عليها في جيب الرداء الذي وجده أحد الزبالين داخل قفة في الخرابة خلف بيت المغنية إيزابيلّا بمدينة الحميراء». وهنا سأله القاضي: «وكيف علمت بهذه التفصيلات عن الرسائل المدمّاة؟». أجاب الشاهد: «لقد قرأت كل هذه التفصيلات في الأوراق الواردة من الساحل البندقي وبها تفصيلات التحقيقات التي قامت بها شرطتهم، وكانت - للحق - عونًا لنا». قال القاضي ابن عقيل: «وأنى لك أن تعرف إذا كانت هذه الرسائل خاصة بالمتهمين؟». قال الشاهد: «لقد قمنا باستكتابهما يا فضيلة قاضي القضاة وتحققنا من خط كل منهما وتأكدنا من اشتراكهما في الجريمة». قال القاضي: «وكيف تأكدتم؟». أجاب: «الرسائل كانت واضحة وتحمل تعليمات من الكوارشي بسرعة إنهاء العملية، وكان الرد يدعوه للصبر وانتظار الأخبار السارة. وفي إحدى الرسائل يا فضيلة القاضي اقترح الكوارشي على المطجّن أن يدبر لإلقائها من سطوح البيت عندما تصعد لسقاية أصص الزرع، وهي نفس طريقة التخلص من «الشريف بن مروان» الذي لم يعثر على قاتله حتى اليوم». قاطعه القاضي: «دعنا من الشريف بن مروان وأكمل شهادتك». قال أبو الحسن: «ويوجد أكثر من رسالة يستفسر فيها المطجّن عن المال ويتعجل تجهيزه، وهناك رسالة أخرى كتب فيها المطجّن: «تم المراد» ومن الواضح أنها كانت بعد أن ارتكب جريمته». قال القاضي في حدة: «ليست مهمتك أن تقرر إذا كان قد ارتكب الجريمة أم لا.. أنت هنا لتشهد بما تعرفه فقط.. فاهم؟». قال المراكبي وقد بدا عليه الخوف رغم شراسته البادية: «حاضر يا فضيلة القاضي».

بعد انصراف الشاهد فوجئ الجمهور بالمدعو «مهيار السيسي»؛ وهو تاجر وطالب علم شرعي في الوقت نفسه، يرفع صوته ويطلب الكلمة، فلما أذن له القاضي، طالب بعلو الصوت بضرورة حضور السلطان البيكيكي نفسه وابنه حسّان للإدلاء بشهادتهما نظرًا للصداقة الوثيقة التي تربطهما بالمتهم ابن الكوارشي. عند هذا الحد طلب القاضي استراحة قصيرة تُستأنف بعدها المحاكمة.

في هذه الأثناء كان همَّام يمسك بحديد القفص وهو زائغ العينين ينظر بشغف نحو الباب كأنما يتطلع لقدوم أحد كان ينتظره. ولم يهدأ إلا مع سريان همهمة بين الناس لدى رؤيتهم البندريّة شقيقة همَّام الصغرى تدخل القاعة وتخطو نحو القفص وتقف

مع همَّام تتبادل معه حديثا هامسًا وهو يستمع إليها في شغف. كانت البندريّة بهية الطلعة، تبدو عليها سيماء الرفعة، معروفة بالفصاحة وقوة الشكيمة، وهي التي تتولى الآن إدارة أملاك العائلة والإشراف على وكالات الكوارشي للتجارة والمقاولات بعد أن كبر الأب وحاصرته الأمراض فلزم الفراش. كان من الواضح أنها تحمل إليه أنباء طيبة لأن علامات الطمأنينة بدت على محيّاه بعد التحدث إليها.. ناولته بعض الطعام وإبريق ماء فأكل وشرب، بينما كان المطجّن يتطلع إلى فتاة أحلامه التي لم تعره انتباهًا، وينظر في نهم إلى الطعام عسى أن يمنحوه شيئًا منه. ومن الواضح أن البندريّة قد دفعت كثيرًا للحراس الذين يتعيشون على أموال «البرطيل»؛ لأنهم سمحوا لها بالتحرك بحرية داخل القاعة وأفسحوا لها المجال لتنفرد بهمَّام كيفما شاءت وقد أعطته أوراقًا قرأها على عجل ثم ردها إليها. ثم انتبهت القاعة لصوت الحاجب يعلن مرة ثانية استئناف الجلسة ودخول قاضي القضاة ابن عقيل الأندلسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الكنز

مضت الأيام داخل السجن بطيئة على همَّام بن عليش الكوارشي في انتظار المصير. وكان يقيم على خلاف غيره من المساجين في غرفة فسيحة تم إعدادها من أجله، وقام على خدمته فيها عدد من المساجين والحراس! وعلى الرغم من المعاملة القاسية التي كان يتعرض لها كل من يسوقه حظه إلى سجن «الأدغم» فإن الحرس وآمري السجن لم يكونوا يصدقون أن ما يرونه هو شيء حقيقي، وبدا لهم لعبة يلعبها الكبار من أجل إزجاء الوقت ودفع الملل، وهذا شيء لم يكن مستغربًا على أبناء الأعيان الذين حازوا ثروة تفوق مال قارون دون أي جهد، وكانت أيامهم تمضي ما بين صيد وقنص ولهو وسماع وخمر ونساء من كل صنف، وكان بعضهم قد وقع في أسر الخلطات الرهيبة التي كان يقوم بتركيبها «أبو حصيرة» العطار اليهودي، ومن أشهرها خلطة الحبشتآن المغربي وخلطة القلقشند المطحون وخلاصة النخشبرت الهندي، التي كان العطار يجلب موادها من مملكة أراجون، وقيل إن الملك خايمي الأول كان يمنحه إياها بالمجان لنشرها بين الشباب في مرسية ثم وصلت بركاته إلى إشبيلية! وكثيرًا ما كان أبناء الأعيان من الشباب المترف يخرجون في الليل تحت تأثير ما تعاطوه فيقومون بالإغارة على أحياء الفقراء في حماية فرقة الجندرمة ويختطفون امرأة من فراش زوجها أو صبي من أيدي أبويه وذلك بقصد التسلية واللهو وكسر رتابة الأيام! وضج الرعية بالشكوى من انفلات أبناء الأعيان وفجورهم، ورفعوا للسلطان البيكيكي الظلمات والعرائض يشكون إليه إجرام أصدقائه ورجاله، وقد هددوا بالثورة والخروج على السلطان، وبعثوا إليه من يذكره بما حصل في بلنسية عندما دخلها «أبو جميل زيّان» سليل آل مردنيش، في حماية الجمهور وعقد البيعة لنفسه وخلع السيد «أبا زيد الموحدي» والي المدينة الذي لم يجد بدًّا من اللجوء للملك خايمي ومعه كاتبه ووزيره «ابن الأبّار»، ومما يذكر لابن الأبّار أنه ظل يستصرخ ملوك وأمراء المسلمين لنجدة الثغور التي أخذت تتساقط الواحدة تلو الأخرى، وكانت سينيّته الرائعة نموذجًا مُبكيًا وكأنها نفثة الأندلس الجريح ألقاها بين يدي الأمير «أبي زكريا الحفصي» سلطان دولة بني حفص بتونس، ومطلعها:

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلِ اللهِ أندلُسَا

إنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجاتِها دَرَسَا

وَهَبْ لهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا الْتَمَسَتْ

فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسا

لكن السلطان البيكيكي على العكس من السيد أبي زيد الموحدي؛ كان مطمئنًا لاستتباب حكمه، وكان الصلح الذي عقده مع ملك قشتالة والجزية التي يؤديها إليه والقشتاليون الذين يحرسونه يجعلونه يشعر بالقوة، فضلًا عن إحكامه الرقابة على رجاله فكان ينشئ عسسًا على العسس، كما كان يعتقد دائمًا أن الرعية لديه أهون من

أن يتعدى جهدهم الكلام، وإن كان من وقت لآخر يقوم بإلقاء حوت من الحجم المتوسط من السفينة، أما الهامور الوحشي فدونه خرط القتاد!

لهذا فقد اعتقد حراس السجن أن الأمر كله لا يخرج عن كونه حيلة أو مزحة من مزحاتهم الملعونة سيكون لها بالتأكيد ضحايا، وقد خشي كل منهم أن يكون من بين هؤلاء الضحايا، وظنوا أن اللعبة بعد أن تنتهي سيخرج عليش من البوابة وضحكاته تشق الفضاء، وبعدها سيتفرغ للانتقام من كل من أساء إليه أو حتى نظر إليه بشماتة. لهذا فقد حرصوا على معاملته كأحسن ما تكون المعاملة. أيضًا الأموال التي كانت تصل إليهم من والده الكوارشي الكبير، ذلك الرجل المُسن الذي لم يمنعه فراش المرض من الاهتمام بولده الوحيد ومؤازرته في مصيبته، كذلك نفوذ البندريّة شقيقته وقدرتها على إخضاع الجميع.. كل هذ كفل لعليش إقامة مرفهة داخل السجن في انتظار الحكم.

أما بالنسبة للمطجّن البصاص فقد كان الأمر مختلفًا تمام الاختلاف. لقد لقي منذ اليوم الأول معاملة شديدة الفظاظة والقسوة. كان معروفًا أن أمواله قد تمت مصادرتها بعد العثور عليها مدفونة تحت كانون النار في صحن داره، لكن رجال السجن لم يصدقوا أنه لا يخفي كنزًا في مكان آخر لم تصل إليه يد البصاصين، وطمع كل منهم في أن يكون له نصيب في الكنز، لهذا فقد قاموا بجلده من أول لحظة عسى أن يظفروا منه باعتراف سريع، لكنه كان شديد الجَلَد وأقسم لهم أن المال كله قد صودر، ولو كان يملك شيئًا منه لافتدى نفسه، فلما يئسوا منه أودعوه عنبرًا كبيرًا شديد القذارة به عشرات السجناء الذين تُركوا يفترسهم الجرب والجزام. وكان من ضمن نزلاء العنبر بعض من ضحاياه الذين استقبلوه لدى دخوله استقبالًا حافلًا باللكمات والركلات والصفعات، فكسروا أسنانه ولم يتركوه إلا وهو عاجز عن الأنين، ومن يومها صار خادمًا للجميع داخل العنبر. ولم تشفع له زمالته لحراس السجن كبصاص قديم، إذ إنهم لم ينسوا غطرسته القديمة وتيهه عليهم بانتسابه إلى فرقة الجندرمة القريبة من الحكام وكبار التجار والأعيان، وعدم تورعه عن إيذاء زملائه. وكان أبناء هذه الفرقة مرهوبين حتى من زملائهم بسبب أن قائد الفرقة أبا الحسن المراكبي كان يتخير الرجال وفي باله صفات لا يمكن التنازل عنها في المتقدم، من أهمها الغدر! هذا غير سبب آخر جلب على المطجّن نقمة رجال العسس بكافة الفروع وهو أنهم نفسوا عليه الفرصة التي واتته بأن يكون هو صاحب الحظوة لدى رجل ثري وسفيه مثل همَّام الكوارشي، وأن يتم تكليفه بهذه المهمة السهلة، وكل منهم كان يعتقد جازمًا أن المهمة لو أوكلت إليه لقام بها على أكمل وجه وفاز بالجائزة. أما هذا المطجّن المتطاوس فلم يجلب لهم سوى الخزي والعار ليس لكونه مجرما أثيمًا وإنما أن يكون بكل هذه الرعونة والنزق، فيترك وراءه شريطًا من الآثار سهّلت القبض عليه.

كان على المطجّن أن يجد حلًّا لهذه المعضلة.. لقد أنهكوه ضربًا ولم يعد يحتمل المزيد، والأيام ما زالت حبلى بهوان أشد. بعد طول تفكير وجد أنه لا بد أن يستعين بالمال الذي خبأه على نوازل الأيام، فقرر أن يبوح بجزء من الحقيقة بشأن أمواله ويخبر السجناء والحراس بأمر المال. فأطلق وسط المساجين أقاويل عن كنز مخفي

له خارطة يحفظها في قلبه، قوامه الأموال التي جمعها من البرطلة طوال السنين، علاوة على الجواهر التي كان يسرقها من مخدومه أيام كان يتركه طليقًا في البيت، عدا عن المكافأة الضخمة التي اقتنصها منه ولم تستطع الشرطة أن تعثر إلا على جزء صغير منها. والحقيقة أن المطجّن البصاص كان يحتاط للأيام فأودع جانبًا لا بأس به من أمواله في صندوق نحاسي ختم عليه وخبأه بقاع نهر «تجاريتي» وربطه بحجر بين الصخور. فهل يكون ذلك الصندوق هو وسيلته للفرار من سجن الأدغم الرهيب واسترداد حياته من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السحلاوي.. رجل قلعة الشمقمق

لم تتوقف المحاولات المحمومة التي بذلها آل الكوارشي من أجل إنقاذ فتاهم المدلل همَّام من حبل المشنقة بعد أن اعترف المطجّن البصاص بالجريمة ودور همَّام فيها. وعلى الرغم من اليقين الذي كان لدى العامة أن الأمر كله عبارة عن تمثيلية وأن البيكيكي لن يترك حليفه تفترسه السباع وسيجد له مخرجًا، فإن عائلة الكوارشي لم تكن تركن إلى هذا الاحتمال وكانت تخشى غدر السلطان الذي يعرفونه أكثر من غيرهم. ومع هذا لم تنقطع محاولاتهم، وخاصة البندريّة، في طلب مقابلة السلطان البيكيكي في محاولة لاستعطافه وتذكيره بما كان، كذلك تنبيهه من خلال الرسل الذين تولوا سرد الخدمات التي أسداها آل الكوارشي للسلطنة وتأمين العرش، فضلًا عن الأموال التي أنفقها بسخاء لتعضيد ملكه والتمكين لحسّان ولده الوحيد من بعده، خاصة أن الطامعين في العرش لا حصر لهم ولا يقتصرون على الأمراء الطموحين فقط من داخل السلطنة، وإنما القشتاليون أنفسهم لا يمكن الركون إليهم لأنهم في النهاية قد يتخلون عنه تاركينه لأهل «قرمونة» يتولون حسابه. وقد تضايق البيكيكي للتلميحات التي حفلت بها الرسائل وثارت حفيظته لما أحس أنها تهديدات تستتر بالنصح والاستعطاف، فأرسل إليهم محذرًا ومذكرًا بأن أموالهم هذه التي يتحدثون عنها هي أموال الرعيّة وأنه هو شخصيًّا الذي أتاحها لهم ومكنهم من نهبها. بعد ذلك امتنع عليهم تمامًا ورفض لقاء رسلهم وخشي من مغبة أن يفهم فارس المختوم حاكم إمارة الساحل البندقي الأمر على نحو خاطئ فيغضب منه، وكان حريصًا على إرضائه، ليس هو فقط وإنما أمراء خليج البيسان الذين كانوا جميعًا يعملون في خدمة ملك أراجون ويؤدون إليه الجزية في الميعاد. لهذا فقد ترك السلطان البيكيكي قرمونة ليهرب من الضغوط وتوجه إلى شاطئ المحيط حيث قصره الذي بناه له الكوارشي في الأيام الخوالي وظل هناك يدير شئون السلطنة من بعيد. وكانت للسلطان هواية عجيبة حار فيها الخدم وشماشرجية القصر: كان معروفًا ولعه وغرامه الشديد بالطعام وخاصة صنف معين منه هو الإوز المشوي، وكان يقوم في حديقة القصر أمام المحيط بتنحية الخدم وتجهيز الحطب وتتبيل الإوز والقيام بعملية الشي بنفسه وتنسم رائحة الشواء، ولم تمنعه سنوات عمره المديد التي تعدت المائة من تناول إوزة مشوية كاملة في إفطاره إلى جانب العسل والزبد والفطائر!

لم يركن الكوارشية إلى السلطان وحده في سعيهم لإنقاذ همَّام وتحركوا في كل اتجاه ونثروا المال بلا حساب، حتى ليقال إن الذي لم يحقق ثروة من أموال الكوارشي في تلك الفترة لن يُكتب له الثراء أبدًا!

أخذت المحاولات أشكالًا عدة وتم العمل في أكثر من سبيل، وجرى تقسيم الأتباع في مجموعات كانت أهمها المجموعة التي توجهت إلى قلعة «الشمقمق» في أعلى الجبل؛ تلك القلعة التي تطل على المدينة من حالق وقد بناها الشمقمق للهروب من ملاحقة السلطان البيكيكي الذي كان يخشاه ويتصوره طامعًا في العرش، وبعد مقتل الشمقمق على نحو غامض قام رجل ذو بأس شديد بالاستيلاء على القلعة وأبرم تفاهمًا سريعًا مع السلطان البيكيكي، كُلفت هذه المجموعة من رجال الكوارشي

بالاتصال بهذا الرجل القوي المعروف كأحد أشد أبناء الليل دهاء وأوسعهم مقدرة وحيلة وهو «السحلاوي» قاطع الطريق المشهور وصاحب الغارات التي ينقض فيها على سكان الوادي ثم يصعد ورجاله عبر الدروب التي حفروها وصولًا لقلعة الشمقمق الحصينة، وكثيرًا ما كان يقتسم الغنائم مع جندرمة السلطان البيكيكي إذا ما اعترضوا طريق عودته. بعد رحلة وعرة صعد الرسول الموفد من قبل الكوارشي الكبير ورجاله وبصحبته رسالة من مخدومه قام بتسليمها لحراس البوابة.. وبعد زهاء ساعة تم السماح لهم بالدخول والمثول بين يدي السحلاوي.

كان السحلاوي من أعجب الشخصيات المؤثرة في تلك الفترة. كان أمير المرتزقة بلا منازع، ولم يكن له ولاء لأي أحد، ومع هذا كان قادرًا على جعل الجميع يظنونه صديقًا. تعامل مع القشتاليين ونجح في إنقاذ أسراهم بالمال والحيلة وأحيانًا بالقوة المسلحة. كما عمل في خدمة الأمراء العرب والأعيان الفاسدين من الموحدين وأبنائهم، وكان شبيهًا بأمراء وسلاطين زمانه الذين تنقلوا في حياتهم بين قتال الإسبان حينًا ثم القتال في صفوفهم ضد العرب حينًا آخر. وكان من الممكن أن يعمل اليوم في خدمة ذلك الأمير ثم ينقلب عليه إذا تلقّى عرضًا أكثر سخاء. وكان يظهر اليوم في بلنسية وغدًا تجده في ميورقة ثم يكر عائدًا إلى إشبيلية، يجند الأتباع ويجمع شهود الزور من كل البقاع ويرسم في الأذهان حقيقة تختلف عن الحقيقة! ومن أشهر عملياته التي تحدثت عنها ممالك الأندلس خدعته الكبرى للأمير العربي «ابن هود» الذي تطلع إليه الناس لنجدتهم من ضغط الإسبان والسقوط المتتالي لمدائنهم الواحدة تلو الأخرى. وكان ابن هود يهم بقتال القشتاليين على مقربة من قرطبة بعد أن أعد لهم أكثر من خمسة وثلاثين ألف مقاتل، ولم تكن حشود القشتاليين تؤلف قوة ذات شأن، لكن كان يوجد في جيش ابن هود فارس قشتالي منفي بأمر مليكه يدعى «لورنسو خواريز»، وكان ابن هود يثق به تمامًا ويعمل بنصحه، فلما نزل ابن هود في «إستجة» وهو يعتزم قتال القشتاليين، تسلل هذا الفارس إلى المعسكر الإسباني وتقدم بنفسه إلى خيمة الملك وطلب مقابلته لأمر خطير، فاقتيد إليه، ولما شرح له مهمته وأنه يريد أن يخدع ابن هود ويخوفه من قوة الجيش القشتالي وعدده، عفا عنه الملك وأجزل له العطاء ووعده برعايته، وعاد لورنسو إلى ابن هود وحذره من الاشتباك مع القشتاليين، فاستمع الرجل إلى نصحه وقرر أن يتخلى عن نجدة أهل قرطبة الذين تُركوا لمصيرهم، وبهذا أنقذ جيش القشتاليين من الدمار. ويقول العارفون إن لورنسو خواريز هذا لم يكن سوى السحلاوي نفسه!

وكان الكوارشي الكبير يعرف عنه أكثر مما يعرف الآخرون، وقد تعامل معه في أكثر من عملية في السابق وبعض هذه العمليات كانت لحساب السلطان، لهذا فهو يعلم جيدًا أنه ثعبان لا أمان له، وأنه قد يبيعك ويتفق مع عدوك في أي لحظة، لهذا لم يقبل أن يزوجه من ابنته البندريّة عندما طلبها وخشي من غدره واكتفى بمنحه المال فقط. وقد تعجب الكوارشي الكبير من الأوغاد والمجرمين الطامعين في الزواج من ابنته، وساءه أن يكون اجتراؤهم عليه سببه نظرتهم إليه باعتباره واحدًا منهم! والآن فإن حرج الموقف وخطورته لم يدعا له خيارًا سوى التماس العون من ذلك الوغد الزنيم.

قرأ السحلاوي رسالة الكوارشي الكبير وكتب ردًّا عليها طلب فيه إمهاله حتى يعد العدة ويضع الخطة المناسبة، وطلب صندوقين من الدنانير الذهبية قبل أن يشرع في العمل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عز الدين أنكش والعلقم المر

كانت صدمة تمام الرومي لمصرع ابنته إيزابيلّا على هذا النحو الفاجع قد هدَّته هدًّا. فانتقل للعيش في «طليطلة» حاضرة مملكة قشتالة ومقر ملكها فرناندو الثالث. وكانت طليطلة تعيش فترة انتشاء بعد نجاح حملات فرناندو المتوالية وحصاره لمدن شرق ووسط الأندلس، وكان هناك تفاهم واتفاقات مكتوبة بينه وبين ملك أراجون على الفتوحات المستقبلية وتقسيم التركة، وقضم أراضي ومدن وأحواز الممالك الأندلسية المتصارعة التي يستعين ملوكها الخائرون بكل منهما على أشقائه!

عندما حملت الرسائل إلى تمام الرومي طلب القاضي ابن عقيل حضوره للاستماع إليه في إطار محاكمة همَّام بن عليش الكوارشي والقاتل المأجور المطجّن البصاص لم يدر ماذا عساه أن يقول لهم. هل يحكي عن حلمه الذي تبدد ومشروعه الذي انهار وبضاعته التي أتلفها الهوى؟ هل يخبرهم عن السنين التي أنفقها في تعهد إيزابيلّا بالرعاية وإعدادها وتجهيزها لتكون متعة للسامعين والناظرين؟ هل يقص عليهم كيف استقدم من أجلها فريقًا من المدربين على فنون الرقص والغناء، أم يروي لهم رحلاتها الدائمة إلى حمّام «الروضة» حيث العناية الفائقة بنظافة البدن وتجميله على يد أمهر الماشطات والبلانات والحفّافات اللاتي أضفن إليها جمالًا على جمال؟

سرح تمام الرومي في خواطره وتذكر ابنته في صغرها وكيف كانت مثار حسد الجيران في «مقريط» حيث نشأت، وكيف كانت آية للجمال تبهر كل من تقع عليها عيناه. وتذكر الرومي طابور الرجال الذين وقفوا ببابه يطلبون الحسناء للزواج وكيف كان يردهم في رفق. وتذكر أن صوتها وجمالها قد لفتا إليها الأنظار بقوة، مما دفعه إلى البحث عن آفاق أكثر رحابة في بلاد الأندلس حيث الحضارة والثراء. ولم يكن همَّام بن عليش الكوارشي هو أول العاشقين، لكنه كان أغناهم وأرفعهم شأنًا وأعظمهم خطرًا. ولا ينكر «ألفونسو» أو تمام الرومي (كما أسموه في الأندلس) أنه لم يكن في البداية عارفًا لقيمة ابنته الحقيقية وسحرها الطاغي الذي يصرع الرجال، ويعترف أنه دون أن يدري أضاع وقتًا في صحبة البخلاء والمفلسين حتى إنه زوّج ابنته واحدًا منهم. صحيح أنه سرعان ما تنبه للأمر وسعى لإصلاحه، لكن بعد أن ثارت مطامع الزوج الذي أدرك أن بين يديه كنزًا.. وهكذا كانت حياة الجميلة إيزابيلّا؛ عاشت مفتقدة للأمان والكرامة تنتقل من يد أب يحلم بالثراء عن طريق ابنته بعد أن خاب أمله في ولده الوحيد، إلى يد زوج قرر أن يعتصرها حتى آخر دينار تستطيع أن تحصل له عليه من الغناء في قصور الأغنياء. وكانت مساوماته لتطليقها وحصوله على المال من همَّام الكوارشي مثالًا لنوعية الرجال الذين نُكبت بهم!

الآن عرف تمام الرومي أن ابنته عاشت تعيسة وماتت مظلومة. وتذكّر أن أحدًا لم يكن يكترث لمشاعرها أو احتياجاتها، حتى إنها اعتادت أن تلبي طلباتهم دون أن يسألها أحد عما تريد. لقد تصور تمام أن المال والجواهر وحياة النعيم كفيلة بإسعادها، لكنه لم يدرك أن كل هذا قد ينقلب نقمة عليها، لأن من يقدّم كل هذا

يحصل على الروح في المقابل. الآن يدرك تمام أن إيزابيلا لم تعرف طعم السعادة في حياتها القصيرة، ويدرك سر دموعها التي لمحها تتأرجح كثيرًا في مقلتيها ولم يُحسن تفسيرها. كان كثيرًا ما يتهمها بالبطر ويقول لها إنه أفسدها بتدليله.. والواقع أن من تعمل منذ صغرها للإنفاق على الأب والأخ ثم الزوج لا يمكن أن تعد مدللة بحال!

طاف بخياله اليوم الأول الذي انتقلوا فيه ثلاثتهم إلى قصر الكوارشي بعد استقرارهم بقرمونة. في تلك الأيام بدت إيزابيلّا سعيدة أو حاولت أن تكون كذلك. كان قد سمع عن نزق همَّام وحبه للتملك وقسوته المفرطة في العقاب، لكنه أيضًا سمع وخبر وتذوق من ثرائه الواسع وكرمه غير المحدود وبحر النعيم الذي وعدهم به. لو كان يعلم أن مقتلها سيكون بيده أو بيد أحد رجاله لطوى طموحه وقنع بالعيش البسيط، وما حملها بيده إلى النار. في الأيام الأولى ظن أن إيزابيلّا قد وجدت رجلها الذي حلمت به، لكن مرور الأيام كشف له أن قلبها ظل مغلقًا، ذلك أنها لم تنسَ أنه اشتراها بالمال فأسلمته جسدها وضنت عليه بالحب. أراد أن يبرهن لها على حبه فأخبرها بأنه سيتزوجها ويرفعها إلى أعلى منزلة ولن تكون بقصره مجرد محظية.. وبعد أن ارتفعت آمالها إلى عنان السماء صُدمت برفض عائلته الثرية، وخاصة والده الكوارشي الكبير، أن يتزوج بمغنية متبرجة يتفرج عليها الجميع. كان لهذا الرفض أسوأ الأثر على إيزابيلّا فعادت للغناء في الحفلات داخل القصور على غير رضا من همَّام، ولم تعد تحفل بإرضائه، فثارت بينهما المشاحنات لأنه أرادها له وحده ولم يشأ أن تلتهمها أعين الرجال، لكنها هددته بالرحيل عن القصر فوافق كارهًا وإن لم تتوقف محاولاته عن إثنائها. وتذكر تمام الرومي الليلة الفاصلة التي جعلت ابنته تكره همَّام وتصمم على مغادرة قصره وبلدته كلها: كانت قد دعيت للغناء عند أحد السادة الموسرين، وعندما ذهبت بصحبة أبيها وشقيقها «خورخي» فوجئت بنفسها في قصر عز الدين أنكش، ووجدت أنكش وصحبه من الشباب في انتظارها. كانت تعلم أن غناءها في قصر غريمه اللدود سيشعل النار بينهما، ولم تكن راغبة في استفزازه أو إيذاء شعوره فأخبرت أباها برغبتها في الانسحاب، لكن تمام الرومي خشي من مغبة الرحيل وأقنعها بضرورة الغناء لأن إغضاب أنكش غير محمود العواقب، فلما جادلته طمأنها بأن حب همَّام وشغفه بها سيجعله يسامحها ويفهم حسن نيتها، فأكملت الليلة وشَدَتْ بأغانيها الجميلة، وطرب الحضور واستعادوها غير مرة. في تلك الأثناء لم يكتف عز الدين أنكش بما فعل، وإنما إمعانًا في الكيد أرسل من يخبر همَّام الكوارشي - وكان في بيت زوجته - بأمر إيزابيلّا وسهرها عنده وغنائها له ولأصحابه. وقع الخبر على همَّام كالصاعقة وأدرك أن عز الدين أنكش قد ارتقى مُرتقى صعبًا هذه المرة وتجاوز كل الحدود وفتح بينهما طاقة للعداء لن يسدها سوى الموت. وكان غضبه من أنكش لا يعادله سوى الحزن الذي كاد يقتله من إيزابيلّا، ورآها ساعدت غريمه على تمريغ أنفه في التراب. في هذه الليلة ثار عليها ثورة عارمة وامتدت يده إليها بالضرب للمرة الأولى وهو يردد: «لقد أوصلتي عز الدين إلى بيتي ومكنته من حرماتي، هو يعلم أني أحبك ويعلم أني طلبتك للزواج، وأنت يا امرأتي المصونة سامرته وغنيتي له ولأصدقائه». وعندما فشلت إيزابيلّا في إقناعه بسلامة نيتها انقلبت غاضبة هي الأخرى وصارحته بأنه لا

يختلف عن أنكش في شيء، وأنها لن تقبل بعد الآن أن تكون لعبة في صراع الأعيان المدللين وستتركه وترحل. أقسم همَّام بأنها إذا نفذت تهديدها فسوف يقتلها.. وكانت هذه من المرات القليلة التي يبر فيها عليش بقسم أقسمه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

عجينة.. فضيلة الخليع

لم يكن همَّام بن عليش الكوارشي أعجوبة في شغفه بالمغنية إيزابيلّا، ذلك الشغف الذي أورده موارد الهلكة.. وإنما كان يسير على دين ملوك وأمراء الأندلس الذين كان لكل منهم عدد وافر من الجواري والخليلات ذوات البشرة البيضاء والعيون الملونة. حتى إن الأمير ابن هود الذي كانت الجماهير الأندلسية تعقد آمالها عليه حتى ينقذها من الفُرقة والتشرذم ويقف لأطماع فرناندو الثالث ملك قشتالة، كان وسط المسئوليات الجسام مشغولاً بجارية إسبانية شديدة الحسن ملكت عليه كيانه وأراد أن يخبئها عن العيون، فكان أن أودعها بألمرية عند واليها «الرميمي» خشية أن يتسرب خبرها إلى زوجته. وحتى تكتمل المهزلة فإن الرميمي طمع في خليلة سيده فاستأثر بها، وعلم ابن هود بالأمر فسار إلى ألمرية وهو يضمر معاقبة الرميمي فلما وصل استقبله الرميمي بحفاوة ودعاه إلى قصره ليجتمع بجاريته الحسناء، وهناك كان الرميمي قد دبر أمره للقضاء عليه، فقيل إنه دس عليه بالحمام أربعة من رجاله قضوا عليه. وهكذا مات ابن هود أمير الأندلس الذي نادى به الناس في أغلب الولايات أميرًا، على يد الرميمي والي ألمرية نتيجة التنازع على ملكية جارية شقراء!

هكذا كانت الأوضاع في غاية السوء، ولم تعرف الرعية لمن تلتجئ وسط كل مظاهر التداعي والانهيار والأخبار السيئة التي تأتي كل يوم تحمل انتصارًا جديدًا للإسبان ونزوحًا جماعيًا لأهل البلدان التي فتحها ملك قشتالة نحو الداخل الأندلسي الذي لم يسقط بعد. لجأ الناس إلى المساجد يتضرعون إلى الله أن يكشف الغمة ويدركهم قبل الفناء الذي لاحت نذره، واستنجدوا بشيوخ الإسلام أن يفعلوا شيئًا، لكن كانت أشد الضربات التي نزلت على رءوسهم ذلك الخبر المشئوم الذي حمله الرسل من قشتالة بزيارة شيخ الجامع الكبير الشيخ «عجينة» للملك فرناندو في قصره وتناوله الطعام معه في تحدٍّ صارخ لمشاعر الأهالي، ويقول شهود المأدبة إن الشيخ عجينة كان بادي السرور والانبهار بوجوده في حضرة الفاتح الإسباني العظيم الذي ولغ في دماء المسلمين، وقد دعا له أن يكلل الله جهوده في مشروعاته المستقبلية بالسداد والتوفيق، وشد على يديه دون أن يبصر الدم يقطر منها وهو يغادره عائدًا إلى بلاده. وقد تداول العامة هذه الرواية وهم في كرب عظيم من أن يصل التفريط إلى علماء الدين، وأرجعوا ما حدث إلى سوء طويّة الرجل وإدراكه أن الحكم الفعلي هو للملك القشتالي وأن استيلاءه الرسمي على الولاية وحكمها بنفسه بدون وكالة هو مسألة وقت. وقد أراد عجينة أن يضمن لنفسه مكانًا في الحكم الجديد وأن يترك الإسبان له قصوره وضياعه وأراضيه! ومن الأشياء المبكية أن الشيخ عجينة لما شاعت القصة وانفضح أمره بين الناس علل لهم الأمر بأنه لم يكن يعرف أن هذا الرجل هو ملك قشتالة وقد حسبه عابر سبيل! فلما راع الناس تبريره المتهافت للخيانة وموالاته لأعداء المسلمين سألوه: «كيف يا شيخ عجينة يكون عابر سبيل وأنت قد أكلت في قصره حتى بشمت؟»، فأقسم أنه ما قبل دعوته على الغداء إلا لإظهار سماحة الإسلام مع الكتابيين الذين أحل للمسلمين أن يأكلوا من طعامهم! وقد هاجت مشاعر الناس واستبد بهم الكدر، وانطلق شاعرهم «عبد الرحمن بن

يوسف» يُخرج ما في صدور الناس من ضيق وألم في قصيدته الرائعة التي هجا فيها الولاة وأذنابهم. قال ابن يوسف:

ولم تَزَلْ أمامنا صِفَاتُه

غَبَاؤه وطَبْعُه وَضِيعُ

ونِصفُ ما يُقَالُ عن أخْلاقه مُزوَّر

وكُلُّ ما يُقال عن ذَكَائه تَلْمِيعُ

وآيَةٌ على غَبَائه أنَّه غدا موزَّرا في مرة

مُخنَّثًا وتارة مُشيَّخًا فَضيلة الخليع

ومن يومها عُرف الرجل في «قرمونة» بفضيلة الخليع أو ما قرّره العامة الذين إذا ما أطلقوا لسانهم في أحد أقعدوه. أسموه الشيخ «عجينة الواطي».

وفي الوقت الذي كانت الألسن تلوك سيرة عجينة كانت سنابك خيل السحلاوي وفرسانه تدق الأرض على باب قصر الشيخ عجينة في جوف الليل في طلب عاجل للقائه، وقد بلغ من خوف الخدم من السحلاوي ورجاله الأشقياء أن اقتحموا على شيخهم مخدعه ورفعوه من فوق غلام حتى يخرج للقاء السحلاوي!

عندما خلا الرجلان إلى بعضهما البعض قام السحلاوي بمعاتبة عجينة بشدة على تركه الولاية في هذا الوقت بالذات لأنه كان يحتاجه بشدة طيلة الأيام السابقة. لم يكذب عجينة على صديقه قاطع الطريق بشأن زيارته لملك قشتالة تحوطًا للمستقبل.. ولم تكن دناءة عجينة مما يدهش السحلاوي حيث تبادل الرجلان المعونة طوال رحلة صعودهما الدموية. طلب السحلاوي منه أن يدبر فتوى أو اثنتين من فتاويه المعطوبة لأجل إقناع الرعية ببراءة همَّام بن عليش الكوارشي من دم المغنية إيزابيلّا، الأمر الذي قد يساعد في تحويل قناعة القاضي ابن عقيل في اتجاه تبرئة التاجر القاتل، فلما أبدى الشيخ دهشته من المطلب العجيب في الوقت الذي غسل السلطان البيكيكي يده من همَّام وتخلى عنه، قال السحلاوي إن السلطان سيكون أسعد الناس بتبرئة الفتى المدلل ما دامت تتم بعيدًا عنه. لكن عجينة تشبث بصعوبة الأمر، وكانت حجته أن القاصي والداني مقتنع بإدانة الكوارشي فكيف يقنعهم بالعكس؟! فدهش السحلاوي وقال له: «ما الذي حدث لك؟ هل نالت السنين من عزمك وقوتك؟ أين سُمّك الزعاف؟ أين نابك الأزرق؟». ومضى السحلاوي في تذكيره بكل المرات التي صدم فيها الناس بفتاواه ثم مع الوقت تفاعلوا معها وصدقها بعضهم لأنها تصدر عن الحبر الجليل! ومن ضمنها فتواه بتحريم الجهاد وتأثيم من يقاوم ملوك الفرنجة، وفتواه بأن من حق الملك فيليب ملك فرنسا أن يمنع المسلمين من الصلاة على أرضه، وفتواه بجواز أكل مال اليتيم إذا كان المعتدي ذا بأس ويُخشى من حدوث فتنة بين الناس لو قاوموه وطبقوا عليه شرع الله، وكذلك ابتداعه لمقولة «سلطان غشوم خير من فتنة تدوم» تلك التي اخترعها لمؤازرة السلطان البيكيكي وحمل الرعية على الاستسلام للظلم بسوق أحاديث قام شخصيًّا بتأليفها وتمريرها بين العامة بحيث تصبح من صحيح الدين في أذهانهم! وأعاد السحلاوي

تذكيره بتأثير دروسه في إشاعة الوهن واليأس في نفوس الناس، وطلب منه ألا يستهين بقدراته ولا يقلل من قيمة نفسه. فما كان من عجينة في النهاية إلا أن سأله السؤال الذي كان ينتظره: «وما حجم المكافأة على هذه المهمة؟». انفرجت أسارير السحلاوي وقال إنه حصل من الكوارشي على ربع صندوق من الذهب سينزل له عن نصفه.. هنا بدأ الشيخ عجينة في عملية حسابية وأخذ يغمغم بينه وبين نفسه وهو يرفع عينيه لأعلى ويجمع ويطرح ثم قال للسحلاوي: «معنى عرضك هذا أنك حصلت من الكوارشي الكبير على صندوقين من الذهب، أنا أعرف طريقتك في الحساب وفي تجنيب تسعين في المائة من الغنيمة لنفسك قبل أن تقتسم الباقي مع أعوانك المخلصين». ضحك السحلاوي واهتز جسمه هزًّا شديدًا من شدة الضحك وقال للشيخ عجينة: «قم يا رجل وجهز لنا بيديك الكريمتين هاتين قدحين من البورجوندي حيث إن السهرة معك ستطول أيها الرجل الفَكِه!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

لقاء القتلة

قرأ السلطان البيكيكي رسالة فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون التي يطلب فيها زيادة مبلغ الجزية من ألف دينار يوميًا لتكون ألفين، فضلًا عن طلبه بأن يقوم البيكيكي بتوريد محصول الزيتون بأكمله إلى قشتالة بعد جمعه كل موسم، وأصدر من فوره أوامره بمضاعفة الضرائب على عوام الناس ورفع أسعار الغلال، كما أرسل رجاله يصادرون محصول الزيتون تلبية لأوامر الأسياد في طليطلة، فشحّت الأرزاق وقصم الغلاء ظهر العباد وزاد عدد المتبطلين، الأمر الذي أسخط الناس فأخذوا يفرون خارج البلاد هربًا من المجاعة التي بدت في الأفق، فغرقت المراكب ببعضهم في البحر أثناء عبورهم مضيق جبل طارق إلى مراكش، ولم يتحرج آخرون من اللجوء للمعسكر القشتالي والعمل لدى الإسبان. أما المسخرة الكبرى فكانت بعروض العمل التي وصلت إلى علماء الأندلس ومهندسيها وحكمائها وصيادلتها من «الأشقاء» بإمارات خليج البيسان، وذلك استغلالًا لظروفهم البائسة تحت حكم آل البيكيكي، وما كان من اضطرار العلماء وأفاضل الناس إلى الرحيل حيث كانوا يعملون هناك كالرقيق تحت رحمة الوثنيين الكفار الذين يهون إلى جوار ظلمهم ظلم الأعداء القشتاليين. وكان البيكيكي يتمايل طربًا كلما عرف أن العلماء والرعايا الهاربين من جحيمه يتعرضون للضرب بالسياط على يد أصدقائه من آل مسعود!

في تلك الأثناء كان همَّام الكوارشي يقبع بسجن الأدغم، ينتظر الحكم عليه بعد أن شارك المطجّن البصاص جريمة قتل المغنية إيزابيلا. كان ملكًا متوجًا داخل السجن يعمل الجميع على تنفيذ أوامره كلها عدا الخروج. وخارج السجن قام والده الكوارشي الكبير بطرق كل الأبواب بحثًا عن سبيل لفك أسر ولده. وكانت البندريّة شقيقة همَّام تزوره كل يوم وبصحبتها أطايب الطعام والشراب حاملة إليه أخبار المساعي المبذولة من أجله. كل من في السجن كان يترقب قدوم البندريّة في زيارتها اليومية.. آمرو السجن والحراس والمساجين. كانت تدخل من بوابة السجن تخطر في خطوتها الوقورة فتفوح في جنبات السجن وممراته رائحة عطورها المميزة، ومن بين القضبان كانت النظرات النهمة تتبعها مطلقة الخيالات الحبيسة للأحلام المستحيلة. وكان قائد سجن الأدغم يهش لها مرحًّبا كلما أتت ومعها المائدة العامرة بأشهى الأصناف التي كان همَّام يتناول منها القليل، والباقي يكون من نصيب القائد ورجاله.

وبناء على تعليمات البندريّة التي اعتادت أن تقضي معظم النهار معه، قام همَّام في صباح أحد الأيام بإرسال بعض الحراس العاملين في خدمته يطلب استدعاء المطجّن إليه في غرفته. وكان طوال الأسابيع الماضية لا يطيق أن يسمع سيرته، وقد رفض دائمًا محاولات المطجّن للقائه.

فوجئ المطجّن البصاص بالحارس يصطحبه للقاء همَّام وتساءل عن السبب. وقد غشيت شمس باحة السجن عينيه أثناء عبوره، وهو الذي لم يبصر الضوء منذ حل بسجن الأدغم. دخل المطجّن البصاص إلى غرفة الكوارشي فهاله ما رأى: أرائك

مريحة وبُسط أعجمية وفراش وثير ووسائد من ريش النعام ورجال يحملون المراوح يحفون به ويتبعونه أينما تحرك، كأنما لم يفارق الرجل قصره. وأبصر المطجّن أصناف الطعام والفاكهة فلم يستطع أن يتمالك نفسه وهجم على المائدة في وحشية كأنه ضبع ضار، فأشار همَّام للحراس أن يرفعوا الطعام، فما كان من المطجّن إلا أن جثا على ركبتيه على الأرض يستحلف مخدومه السابق أن يُخلّي بينه وبين الطعام لأنهم في زنزانته لا يقدمون له سوى الحشائش التي تنبت شيطانيًّا في الغابة القريبة والتي ما إن يسد بها جوعه حتى تكاد تفتك بأحشائه كل ليلة. قال له همَّام: «نتحدث أولًا ثم يأتي الطعام بعد ذلك». فأقسم المطجّن أنه لم يعد يفهم ما يسمعه من فرط الجوع والهزال.. فتركه همَّام يشبع نهمه للطعام ثم صارحه بسبب استدعائه قائلًا: «لقد غدرت بي أيها المطجّن الخائن واعترفت بكل ما كان بيننا بعد أن افتضح أمرك ولو أنك لم تأت بسيرتي لربما استطعت بنفوذي أن أنقذك، لكنك خنتني وغلبك طبعك، وكنت قد وعدتك بالنعيم فحملتني معك إلى جهنم». أوقف المطجّن استرساله مقاطعًا: «جهنم! وأين هي جهنم هذه؟ إذا أردت أن تراها وتشم ريحها فتعال إلى القبر الذي وضعوني فيه. أنت سيد المترفين حتى في السجن يا ابن الكوارشي». فانفعل همَّام في غضب: «السجن هو السجن يا غبي، ونهايتي قد تكون الإعدام مثلك». فقال البصاص: «الإعدام سيكون من نصيبي وحدي، أما أنت فستخرج مرفوع الرأس وتعود إلى حياتك التافهة من جديد، وستجد السلوى في أحضان أليكساندرا ومارثا وميراندا وغيرهن من الجواري الروميات، ولن تعدم من رجال الجندرمة من هم مستعدون لقتل عشيقاتك الخائنات، وستعود ضحكاتك تهز قصر البيكيكي وأنت تثمل بصحبة حسّان، ثم يحملونك إلى قصرك مع بزوغ النهار». قال همَّام: «رغم نبرة الحقد البادية في صوتك فقد كنت أتمنى لو أن ما تقوله صحيح، لكني لا أضمن شيئًا مما قلت ولا أريد أن أترك شيئًا للمصادفات، لهذا أريدك أن تساعدني». فهتف المطجّن: «أساعدك؟ وهل مثلك يحتاج لمساعدتي؟ أتظنني لا أعرف ما يقوم به السحلاوي من أجلك؟ أتظن أخبار الشيخ عجينة الذي حشا أبوك فمه بالمال، وخطبته على المنبر الجمعة الفائتة التي دعا الله فيها أن ينصر عبده المظلوم همَّام بن عليش الكوارشي وأن يمحق المجرم الأثيم المطجّن البصاص؟ أتظن الأخبار لم تصلني؟ لقد كان المصلون يرددون وراء النذل دعاءه لك ودعاءه عليّ. والحراس يسعدون بتسميمي بهذا الحديث ويقتلونني كل يوم بنقلهم أخبار والدك وبذره المال على الطريق لكل من يدعو لك بالنجاة.. ناهيك عن الرسائل التي تحملها لك البندريّة كل صباح عما يحدث بالخارج». وهنا احتد همَّام وعلا صوته: «لا شأن لك بالبندريّة يا حيوان وإياك أن تتحدث عنها مرة ثانية». قال المطجّن وقد أخذ بانفعال همَّام: «أنا لم أذكرها بسوء يا ابن الأكابر وأنت تعلم إجلالي لها منذ كنت أعمل في خدمتكم». قال الكوارشي: «نعم، وأعلم أيضًا أنك نسيت نفسك ذات يوم وحدثتني بطلب يدها». قال المطجّن: «وأنت رفضت وانتهى الأمر». قال همَّام: «كان لا بد أن أعرف أن مجرمًا مثلك يضمر الشر لنا ولا يبغي بنا خيرًا». قال البصاص: «دعك من ترهاتك وأخبرني ماذا تريد؟». قال: «أريدك أن تسحب اعترافك بشأني وتقول إنني لم أحرضك على قتل إيزابيلا». قال البصاص: «وماذا يكون سبب قتلي إياها يا عبقري؟ هل كنت أشاركها الغرام بك

فقتلتها لأفوز بحبك؟». فصاح الكوارشي: «تحشم يا سافل وتذكر إلى من تتحدث.. أنا همَّام بن عليش الكوارشي سيد إشبيلية كلها، هل ظننت يا بصاص الشوم أنني لا أعرف أخبارك في محبسك القذر ولا قصة الكنز التي تسوقها للحراس؟ إنهم قد خففوا عنك التعذيب قليلًا طمعًا في المال لكنهم سيفتكون بك بعد أن تعجز عن إيصالهم لكنزك المزعوم». قال المطجّن: «يمكنني أن أغيّر أقوالي لصالحك وأبرئك من التهمة في حالة واحدة». فأمسك همَّام أنفاسه.. واستطرد المطجّن: «لكني أريد منك أمرين: بعض المال الذي يسهل حياتي بالسجن، ووعدًا إذا ما كتبت النجاة لكلينا أن تزوجني بأختك البندريّة!». جز الكوارشي على أسنانه قبل أن يصرخ في الحرس: «خذوه من أمامي واسحلوه على الأرض من هنا حتى محبسه».

كانت الدماء تنبثق من المطجّن والحرس يسحلونه بينما ضحكاته تتعالى من فمه الخالي من الأسنان وهو يردد: «سآخذك معي إلى الجحيم يا ابن الأكابر.. هاهاهاها!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

حبيبتي يا إيزابيلا.. حبيبي يا عليش

جلس همَّام الكوارشي ممسكًا برأسه بين يديه وقد نالت زيارة المطجّن من معنوياته وألقت به في لجة من الحيرة والقلق. إن كل الناس بمن فيهم قائد السجن وحراسه لا يصدقون أنه ستتم إدانته حقًّا وينفذ الحكم عليه. حتى المطجّن شريكه في الدم يعتقد هو أيضًا أنه سيدفع وحده ثمن الجريمة وأن ابن الأكابر سيفلت منها، فلماذا لا يصدق هو ما يعتقده الناس؟ ولماذا ينهشه القلق في انتظار المصير؟ إن الكوارشي الكبير قد نفض فراش المرض ودبت فيه الحياة من جديد عندما أوشك أن يفقد ابنه فاستنفر كل قوته في العمل والتدبير لأجل غرض واحد هو إنقاذ همَّام من الموت. وليس صعبًا بكل تأكيد على فرسان السحلاوي أن يقوموا باقتحام السجن وتحريره، والكوارشي يمكنه أن يدفع لهم، لولا أن هذا سيقضي على علاقة السحلاوي بالسلطان البيكيكي وهو ما لا يريده السحلاوي الذي ينعم بالدفء السلطاني، لكن يبدو أن حلًّا كهذا قد يكون أملهم الأخير إذا ضاقت الدنيا وأطبقت عليه من كل جانب.

كان أكثر ما آلم همَّام أن الأمير حسّان ابن السلطان البيكيكي وصديق طفولته لم يزره مرة واحدة في السجن، ولم يحاول أن يمد له يد المساعدة. لكن ربما كانت البندريّة على حق عندما أخبرته أن حسّان يلعب من خلف الستار ويعمل على تخليص صاحبه دون أن يظهر في الصورة، وأن كل الجهد الذي يقوم به السحلاوي والشيخ عجينة الواطي هو بمباركة السلطان وولي عهده.

عادت الأفكار القديمة بعليش إلى أيام كان يلعب فيها على مدارج القصر السلطاني مع حسّان وأخته الصغيرة الأميرة ريحانة، وتذكر همَّام كيف تعلق بها وأحبها من كل قلبه. غير أن وجهه تغير عندما عبرته صورة عز الدين أنكش غريمه منذ الصغر وشريكه في حب ريحانة بنت السلطان. إن أنكش لم يتركه أبدًا ينعم بأي شيء وكأنما هو قدره المعابث يتعقبه ويفسد عليه حياته. ماذا لو أنه سبق وتقدم للزواج من ريحانة قبل عز الدين أنكش؟ أما كانت حياته كلها قد تغيرت؟ أما كانت كَفَتْه العبث والبحث عن الحب لدى غيرها؟ ولكن كيف؟ إن امتلاك أنكش لها لم يمنعه من معاقرة النساء والتماس الجواري لدى كل نخاس، والإغارة الليلية على بيوت الآمنين وانتزاع الفتيات من ذويهم بالقوة. وهو الأمر نفسه الذي كان يشاركه فيه همَّام وسائر الفتيان من أبناء الأعيان. ومن المؤكد أنه لم يكن لينجو من مصيره حتى لو كانت ريحانة في عصمته هو بدلًا من أنكش، فضلًا عن أمر مهم آخر وهو أن السلطان البيكيكي لم يكن يفرق في المعاملة بينه وبين أنكش، ولم تضف المصاهرة إلى رصيد أنكش على حسابه، إذ كان يعتبرهما في منزلة الأمير حسّان ولده الوحيد وولي عرشه، وكان يسعده نشاطهما الوافر وحجم الأموال التي ينهبانها من الناس ويحملانها إليه. والحق أنه كان صديقًا لكل عتاة الإجرام في الإمارة، غير أن أنكش وهمَّام كان لهما النصيب الأكبر من رعايته واهتمامه. ألا سحقًا لك أيها الأنكش اللعين! كل هذا السواد في قلبك، ألا يكفي أنك فزت بابنة السلطان كما فزت بوكالات التجارة مع معظم الممالك الأوربية دون شريك؟ صحيح أن البيكيكي قد

عوضني بالأراضي الشاسعة التي منحها لي دون حساب وعليها بنيت المدائن العامرة دون أن أتكلف درهمًا، وصحيح أيضًا أننا كلنا نتاجر مع الأعداء ونأكل من طعامهم ونتآمر على المسلمين، يعني مصالحنا واحدة، وعاجلًا أم آجلًا ستسقط الإمارات والممالك كلها في يد الفرنجة، فلماذا التناحر فيما بيننا؟ ترى لماذا لا يحدث هذا الآن قبل الغد؟ آه! لو كنت أستيقظ فأجد فرسان قشتالة في فناء السجن يتوسطهم الملك فرناندو.. هؤلاء لا يخافون من فارس المختوم ولا يأبهون لإمارته التافهة ولعلّهم ينقذوني من المحاكمة ويعيدوني للحياة من جديد.. والله لو حدث هذا لضاعفت لهم ما أدفعه للسلطان البيكيكي ولعشت خادمًا لهم ما حييت. وأنت يا عز الدين يا سبب المصائب.. ألم تنسَ ما كان من أمر الجارية صوفيا؟ يا لصوفيا المسكينة التي سبقت إيزابيلّا إلى الموت! لقد كانت مليحة والله وكانت ترقص كحوريات البحر. ما الذي حدث يا عز الدين؟ هل كانت نهاية الدنيا أن أبعث بجارية شركسية من عندي تدعو صوفيا جاريتك الأثيرة إلى قصري أثناء غيابك عند ملك فرنسا؟ ما الذي حدث إذ حررت مدافعي على قلاعها وأسقطت أسوارها التي لم تكن منيعة بالمرة وقضيت منها وطرًا؟ إنها مجرد جارية كان بإمكاني أن أعوضك عنها بأجمل منها. هل يستحق الأمر أن تعلن الحرب عليّ وتقف لي عند كل منعطف؟ لقد كانت مثل غيرها من الجواري ولم تكن تعشقها مثلما كنت أعشق إيزابيلّا، ولا عمرك تمنيت الزواج بها مثلما تمنيتُ. ثم إنك قتلت صوفيا كما تعلم الدنيا كلها ولم يتعرض لك أحد بسوء.. لا ألقوا القبض عليك ولا قدموك للمحاكمة ولا شمت فيك الرعاع ولا ساومك بصاص حقير على الزواج من أختك. ترى هل كنت محظوظًا يا ابن أنكش لأنك ذبحت جاريتك بيدك داخل قصرك، ولم ترسل وراءها بصاصًا غبيًّا يقتحم حمى إمارة الساحل البندقي ويرتكب جريمته ثم يعترف بكل شيء فلا يترك للسلطان مساحة للتصرف؟

آه يا إيزابيلّا! هل تسامحينني إذا التقينا في حياة أخرى؟ هل ستنكرينني أم ستذكرين أيامنا الحلوة قبل أن يعكر صفوها الشيطان؟ هل تتذكرين لهونا في حديقة القصر بجوار النافورة الكبيرة وغناءك لي وحدي؟ الله ما أجمل صوتك يا حبيبتي! لقد تركت بذهني تراثًا غنائيًّا يسليني ويعذبني في آن. كيف أنساك وأنت تهمسين في أذني من ألحان زرياب بأغنية «ابن النبيه» الشاعر العباسي العاشق:

أَفْديهِ إِنْ حَفِظَ الهَوى أَو ضَيَّعا

مَلَكَ الفُؤادَ فَمَا عَسَى أَنْ أَصْنَعا

هَلْ فِي فُؤادِكَ رَحْمَةٌ لِمُتَيَّمٍ

ضَمَّتْ جوانِحُهُ فُؤادًا موجَعا

هَلْ مِن سَبيلٍ أَنْ أَبُثَّ صَبابَتي

أَوْ أَشْتَكي بَلْواىَ أَوْ أَتَضَرَّعا

هل تذكرين يوم طلبت مني أن أغني لك كما تغنين لي؟ طبعًا لم أوافق، فما كان منك إلا أن انصرفت عني غاضبة، وبعدها رفعت عقيرتي بالغناء، فماذا كانت النتيجة؟

كانت غير طيبة بالمرة وقد أفزعك صوتي فهربت في دلال خلف شجرة الكرز. يومها أهديتك قلادة من الماس الحر بإمكان ثمنها أن يطعم أهل الولاية لمدة سنة وذلك تكفيرًا عن غنائي القبيح! هل تذكرين يوم أن التوى كاحلك وأنت تسابقينني في عناد وبك إصرار أن تسبقيني؟ يومها حملتك بين ذراعيّ وتمنيت لو كان المكسور هو كاحلي أنا، وأحضرت لك «ناعوم» المجبر اليهودي الذي خرجت عيناه من محجريهما وهو يتطلع إلى ساقيك المرمريتين، والغريب أن الملعون لم يتقاضَ أجرًا واكتفى بأن ملأ مخيلته من جمالك! هل تذكرين يا عشقي أنني سهرت ليلتها أطببك وأخفف عنك وأبثك حبي وهواي، وقد بكيتُ أنا الذي لم يعرف البكاء حتى امتزجت دموعك بدموعي وصوتك يخرج من بين ألمك للمرة الأولى: «ما أرق مشاعرك يا حبيبي وما ألطف حاشيتك، لم أكن أعرف أنك تحمل بين جوانحك قلبًا رهيفًا!». وقد أغمضت عينيّ يا حبيبتي ونمت بجوارك وأنا أحتضن الكلمة التي سمعتها منك للمرة الأولى.. والأخيرة: «حبيبي!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

مغامرة المطجّن ومؤامرة الوزير.. الغالي

ضاقت الأرزاق في قرمونة وحلّ بالعباد كرب عظيم بعد أن خضع السلطان البيكيكي تمامًا لمملكة قشتالة وليون، وسلّم بكل طلباتهم، فَقَبِلَ بوجود حامية قشتالية على الحدود وسلم لهم ثغورًا وحصونًا كثيرة كانت تواقة للقتال فغدر بأهلها وسلمهم لفرناندو الثالث فخضعت للملك الإسباني وتعهدت بأداء الجزية، ومنها إستجة والمدور وبيانة ومشانة وقبرة... وغيرها. وصار كل ما يشغل السلطان أن يتركه القشتاليون على العرش ويؤمنونه من بعده للأمير حسّان مهما كان الثمن. وكان من آثار استهانة الإسبان به أن فرناندو لم يكن يلقاه أبدًا.. كان يكتفي بمبعوثه «ألبار بيرث» الذي كان يحمل للسلطان الأوامر والطلبات القشتالية، ولعل فرناندو الثالث لم يشأ في هذه المرحلة أن يستولي بقواته على بلاد السلطان البيكيكي وارتأى أن يستمع لنصيحة ابنه ألفونسو قائد الجيش والملقب بالحكيم؛ لأن هذا من شأنه أن يؤجج المقاومة ويدفع الناس للذود عن ثغورهم وحماهم، واختار أن يحكمها بكلفة قليلة من خلال البيكيكي، وبهذا فقد صان فرسانه وحقن دماءهم وفرض سيطرته في الوقت نفسه على الولاية. طلب ألبار بيرث، رجل فرناندو القوي، من السلطان أن يضع على بيت مال المسلمين وزيرًا اختاروه له في قشتالة، ولم يتردد السلطان في القبول خاصة بعد أن علم أن الرجل من بلاد الغال، تلك التي ينحني لها البيكيكي تقديرًا وإجلالًا. وكان هذا الوزير الملقب بـ«بطرس كاساتا» أحد رجال فرناندو الذين يعتمد عليهم في المهام التي تحتاج إلى رجال بلا قلب، وقد وجد فيه البيكيكي ضالته المنشودة فأرسل للملك فرناندو هدية شكر مقابل هديته عبارة عن محصول الزيتون الذي انتزعه من المزارعين عنوة! كان الوزير الإفرنجي «كاساتا» رجلًا جهمًا شديد الغطرسة والكبر، وكان إلى هذا وضيع النفس يتسم بالنزق والتهور والقول الفاحش، فضلًا عما يحمله من حقد دفين على البلاد وأهلها. ونظرًا لقدومه بالأساس من بلاد الغال فقد أطلق عليه الأهالي «بطرس الغالي».. وكانت عائلة كاساتا معروفة في بلاد الغال من قديم الأزل بالخيانة والتفريط ولهم في ذلك حكايات تستحق أن تروى، منها حكاية كاساتا الكبير التي وقعت في الزمن القديم: ذلك أنه عندما قامت إحدى مناطق الغال بثورة في عام ٢٨٧م تقدم إليهم «ماكسيميان هركليوس» وأعد جيشًا لإخماد ثورتهم، وكانت إحدى وحدات هذا الجيش المسماة «الكتيبة الطيبية» مكونة من أفراد أتوا من صعيد مصر وكانوا كلهم من المسيحيين. وحين وصل الجيش إلى أوكتودوروم على نهر الرون قرب بحيرة جنيف أمر ماكسيميان الجيش بذبح النساء والأطفال، فرفضت الكتيبة الطيبية أن يغمس أفرادها أيديهم في دماء الأبرياء، فتردد ماكسيميان بما يفعله مع هؤلاء المسيحيين المؤمنين الذين عصوا أوامره، فأتاه رجلٌ وسوس في صدره وأوعز إليه بقتل الجنود المتمردين حتى يكونوا عبرة لغيرهم.. وهكذا قام ماكسيميان بإبادة أفراد الكتيبة الطيبية عن بكرة أبيهم وكان عددهم ستة آلاف وستمائة جندي. ومن المعروف أن الذي حرّض على قتل الجنود الشهداء وعلى رأسهم القديس موريتز كان «كاساتا الكبير» عميد عائلة كاساتا التي ما زالت تتوارث الخيانة وتقوم بتوريد الخونة لمن يطلب!

تفنن الوزير كاساتا في جمع المال من الناس، وكان قد أتى بتكليف محدد هو تركيع أهل الولاية وجعلهم يسفون التراب، فقام بفرض أنواع جديدة من الضرائب، منها ضريبة الملح.. تلك الضريبة التي عرفتها الممالك الأوربية كلها تقريبًا، ولم تكن تُفرض بولايات الأندلس أو بأي ولاية تحت حكم الأمويين أو العباسيين.. وضج الرعية من الظلم والحيف بعد أن عزّت الأقوات وساء الحال ولم يعد بوسعهم مواصلة الحياة. وقيل كذلك إن كاساتا لفرط جبروته فرض ضريبة كبيرة على الكمّون، وبهذا حرم سكان إشبيلية من عمل الكمونية التي اشتهروا بها! لندع الوزير بطرس يسحب الحليب من فم الأطفال ويسحب الغطاء عن النائمين واللقيمات من الأفواه الجائعة ونتوجه لسجن الأدغم حيث يقبع المطجّن البصاص في زنزانة رطبة ألقوه بها بعد أن أشاع داخل السجن قصة الكنز الذي يحوزه، وأصبح له بعض الدلال الذي سمح له بطلب مكان آخر يستقر به بعيدًا عن عنبر الوحوش الذي لقي فيه الذل على أيدي المساجين من ضحاياه السابقين. كان يلازمه بالزنزانة سجين وحيد يُكنى بالحسين، كان يعمل حدادًا بالمدينة وقد ألقوا به في السجن عندما ثار على الشيخ عجينة الواطي بعد فتواه التي وصف فيها من يتصدون للعدو ويقاتلون جيش قشتالة بالرعاع! ويومها قام الحسين بإعطاء الشيخ عجينة درسًا في الأدب أمام جمع من الناس، الأمر الذي جعل عجينة يجري وراءه وقد خلع الحذاء وفمه يطلق شتائم شديدة البذاءة، وعندما أمسك به الجند أصرّ الشيخ عجينة على ضربه بنفسه ثم ألقى به في سجن الأدغم.

كان الوضع في سجن الأدغم في غاية الغرابة بعد أن فتح المطجّن البصاص شهية الحراس على كنزه المدفون في قاع النهر، وحلم كل منهم بأن يستطيع تهريب البصاص وإرغامه على استخراج الكنز، وكانت الأخبار تتواتر من داخل السجن عن أطماع الحرس، خاصة حين نما إلى علم أبي الحسن المراكبي قائد الجندرمة اجتماع قائد السجن بالمطجّن أكثر من مرة وخشي أن يكون ينوي تهريبه، مما حدا به إلى تغيير قائد سجن الأدغم والإتيان برجل جديد. غير أن المخاوف لم تتوقف بعد أن بدأ القائد الجديد يختلي بالمطجّن بعيدًا عن أعين الحراس. وقد سعى المطجّن القاتل إلى إغواء قائد السجن الجديد مثلما فعل مع سابقه ووعده أن يتقاسم معه الكنز مناصفة لو نجح في إخراجه والوصول به إلى حيث تقبع الجواهر في قاع نهر تجاريتي. كان المطجّن يعلم أن قائد السجن وجنوده لا يقلون إجرامًا عنه شخصيًّا، ويعلم أن الكثيرين منهم يتآمرون مع رجال قشتالة وينقلون إليهم أخبار كل شيء في الولاية. لهذا فقد تأكد أنهم ينوون قتله بمجرد أن يستخرج لهم الكنز، وسيكون فرارهم إلى مملكة قشتالة وليون هو الخطوة التالية. وكانت هذه بالضبط هي خطة المطجّن أيضًا: أن يعمل على قتل من يخرج به من محبسه وأن يستخرج الجواهر ويفر إلى قشتالة. وبينما كان المطجّن يجلس في إحدى الليالي يتبادل مع الحسين الحديث إذا بصوت طرقات على الجدار تصل إلى سمعيهما، وعندما قام الحسين بترجيع الطرق على الجدار أتاهما الصوت من جديد، فلمعت عيونهما بالدهشة وأدركا أن هناك من يريد أن يتصل بهما في زنزانة مجاورة. أخذ المطجّن والحسين في التحديق في الجدار ومحاولة زحزحة الحجر الذي تأتي من ورائه الطرقات. كان الحجر مثبتًا ولا تسهل زحزحته، فتعاون الرجلان على إزالة التراب من على

حوافه، واستعان كل منهما بأظافره لتحديد حدود الحجر الضخم، وعلى الجهة الأخرى كانت هناك يد تدفع الحجر وتحاول زحزحته، فبدأ المطجّن في تكسير الحواف من ناحيته، وكذلك فعل الحسين حتى بدأ الحجر يتحرك فعلًا وأمسك كل منهما بطرف وأخذ يشد حتى خرج الحجر من موضعه فوضعاه على الأرض ونظرا من خلال الفتحة فأبصرا شبحًا يطل من الجهة الأخرى ولا يستبين منه غير عيون لامعة.. وفي اللحظة نفسها سَمعا وقع أقدام الجنود تدق على الممر الخارجي في الطريق إليهما فجمدا في مكانهما من الرعب وهما ينظران إلى العينين اللتين تلمعان في الظلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

حكاية الشيخ شهاب مع لوسي الوزير

جمد المطجّن البصاص في مكانه وأمسك بالحسين مشيرًا إليه بعدم الحركة عند سماعهما لوقع أقدام الجند، ونظر عبر الجدار فوجد الشبح في الزنزانة الأخرى لا يتحرك فيه سوى عينين تبرقان. بعد لحظات سُمعت خطوات الجنود تبتعد حتى تلاشت تمامًا، وعندها همس المطجّن لجار الزنزانة الأخرى: «مَنْ أنت بحق الأبالسة وكيف حفرت الجدار لتصل إلينا؟». فأجاب الشبح: «أنا الشيخ شهاب.. أدخلوني بالله عليكم لأروي لكم قصتي». تعاون المطجّن مع الحسين وأخذا بيد الشيخ الطاعن في السن إلى داخل حجرتهما وأجلساه على الأرض. أخذ الرجل يتفرس في وجهيهما في دهشة وهو يلهج لله بالحمد. «ما بالك يا رجل، ستظل على هذه الحال كثيرًا؟» سأله البصاص. قال الشيخ: «اعذرني يا بني فأنا لم أطالع منذ عشرين عامًا سوى وجوه الحراس، وأنتم بالنسبة لي بمثابة أمل منحه اللـه لي بعد أن كـاد يدركني اليأس». قال الحسين: «هلا قصصت علينا قصتك يا شيخنا؟». أجاب الرجل: «قصتي يا بني هي قصة الغدر والخيانة، هل تعرفان من أكون؟». أجابا في نفس واحد: «كلا». فقال: «أنا الشيخ شهاب عالم الرياضيات والفلك والفلسفة. مؤلفاتي تملأ الأندلس من طليطلة حتى غرناطة ويعرفوني في فرنسا وفي بلاد الغال ولي تلامذة من الحجاز والشام ومصر». فقال البصاص في دهشة: «وما الذي ألقى بعالم بهذا الجلال في غياهب السجن معنا؟». ثم أردف: «حقًّا إن السجن مليء بالأحرار والشرفاء من أمثالنا!». فأغرق الحسين في الضحك وقال للشيخ شهاب: «لو عرفت من الذي تحدّث توًّا لما أمسكت نفسك عن الضحك.. هذا هو المطجّن البصاص عضو فرقة الجندرمة الذي قام وصحبه من الجنود بترويع المدينة ونهب المحال ومعاونة أبناء الأعيان في اغتصاب العذارى من الحرائر، وهو هنا معنا في انتظار الحكم عليه بعد أن قتل المغنية الرومية إيزابيلّا عشيقة مخدومه همَّام بن عليش الكوارشي». صاح المطجّن حانقًا: «لعنة الله عليك يا رجل، أكان لا بد أن تفضحني أمامه؟». ثم وجّه حديثه للشيخ: «وأنت يا مولانا هلَّا أخبرتنا من قتلت ومن سرقت ونهبت؟ أم أنهم أتوا بك هنا في خلوة علمية لتكمل دروسك وتجاربك؟». ضحك شهاب في مودة وقال: «لقد سمعت بقصتك أيها البصاص من حراس السجن، ولم أكن قبلها أعرف أن الكوارشي له ولد يسمى همَّام.. آه! يا للأيام، إن الكوارشي كان جارًا وصديقًا لي منذ الصغر ثم فرقت بيننا الأيام والأهواء، أنا اتجهت للعلم وهو اهتم بالتجارة ومضى يكنز المال لأجل أبنائه، فانظر كيف انتهى به الحال.. يا لحسرة قلبه على ولده الذي فسق في الأرض ومضى يستأجر القتلة الأوباش لنحر النساء!». صاح البصاص غاضبًا: «رويدًا يا عم الشيخ وتحسس كلامك، يكفي ما ألاقيه من عذاب الضمير!». فتفرّس شهاب في وجهه مليًّا ثم قال: «هذا الوجه لا ينبئ بأن صاحبه يتعذب ضميره، لكن على أي الأحوال فإن الله قد وسعت رحمته الخطاة والجناة». ونظر شهاب حوله ثم أبدى دهشته من الطعام الموجود في الزنزانة، فعلّق الحسين قائلًا: «من حظي السعيد مزاملتي قاتلًا محترفًا عرف كيف يخدع وحوش السجن ويوهمهم بأنه يملك كنزًا مخفيًّا في قاع النهر، وقد أطلق أطماعهم من عقالاتها وجعلهم يحسنون إليه

ويطعمونه من طعام الحراس لا من طعام المساجين، وكان هذا من حظي ونصيبي». قاطعه المطجّن قائلًا: «وماذا كنت عساك قائلًا لو أبصرت مائدة همَّام الكوارشي يا ثرثار؟ كف عن اللغو واترك الشيخ يخبرنا عن سبب وجوده في السجن». قال الشيخ شهاب: «أتى بي إلى السجن اثنان من الأشرار المناكيد: أحدهما للأسف أخي والآخر وزير في الحكم!». «من يكون أخوك ومن هو الوزير؟» سأله الحسين فأجاب: «أخي هو الشيخ عجينة، هل تصدقون؟». أجاب الحسين مدهوشًا: «أخوك هو عجينة الواطي؟ قبحه الله ولعنه في كل وقت.. نعم نصدق يا مولانا، أنا أصدق لأنني أحد ضحاياه والمطجّن طبعًا يصدق لأنه عاش عمره يعمل في خدمة أمثال عجينة ويعرفهم جيدًا». قال المطجّن: «ومن هو الوزير الذي شارك أخاك فعلته؟». قال الشيخ شهاب: «الوزير لوسي». رد الحسين في دهشة: «لوسي الحفار؟ أليس هو الوزير الذي أتوا به من حانة اليخاندرو حيث كان يقدم الخمر للزبائن وكانوا يلوطون به آخر الليل؟». قال الشيخ شهاب: «هو بعينه» وأردف: «لقد حدث هذا منذ عشرين عامًا ولعلكم كنتم صغارًا ولا تعون ما يحدث». قال الحسين: «لقد وعينا على الحياة ولوسي الملعون هذا وزير في الحكم حتى ظننا أنه موجود منذ مائة عام». قال شهاب: «لقد أراد السلطان أن يعاقب أهل الولاية بعد أن تعرض لمحاولة القتل بسهم مسموم أطلقه عليه أحد الرعية يوم عيد جلوسه، فأقسم البيكيكي بعدها أن يأتي لهم بأقل الرجال شأنًا وأهونهم أمرًا وأشدهم خنوثة ليوزّره عليهم عقابًا لهم، ولما سأل المستشارين والبطانة المحيطة أن يحضروا له شخصًا بهذه الصفات، أجمعوا على أن لوسي الذي يعمل عند اليخاندرو والذي اشتهر بالحفر على الخشب هو الشخص المطلوب. وهكذا أصبح هذا الغلام الأمرد بين عشية وضحاها وزيرًا له إيوان وله خدم وحشم، يسكن قصرًا منيفًا، ولديه فرسان أشداء يتقاضون من بيت المال رواتب باهظة، تم استحضارهم خصيصًا لأجل تلبية طلباته الماجنة! هذا وقد لاقى هذا الاختيار ترحيبًا كبيرًا من مملكة قشتالة ومن فرنسا التي منحت الرجل مباركتها الروحية. وبطبيعة الحال صرخت الرعية من هول ما حدث وهرعوا إلى الشيوخ والحكماء يطلبون منهم التدخل لدى السلطان وإقناعه بعاقبة ما فعل في الدنيا والآخرة، غير أن الشيوخ نكصوا على أعقابهم وأحجموا عن التدخل متعللين بخشيتهم من فتنة بين العباد، وعندما استنجد الناس بالشيخ عجينة شيخ الجامع الكبير دهمهم الخبر المروع أن عجينة نفسه اعتاد أن يطأ الغلام منذ سنوات، وكثيرًا ما أحضره إلى قصره، ولهذا فهو من أشد المتحمسين لاستوزاره!». قال المطجّن: «أنا أعرف كل هذا وأكثر منه، ولي أصدقاء بالجندرمة كانوا يسهرون على حراسة ليالي لوسي وعجينة الممتدة». قال الشيخ شهاب: «في ذلك الحين لم أستطع السكوت على ما يحدث وتوجهت لزيارة عجينة وبصحبتي حشد غفير من الشعب الغاضب وطلبت منه أن يعود إلى الله ويتوقف عن الخلاعة والمجون مع الوزير لوسي، وهددته برفع أمره لقاضي القضاة وأنني سآتي بالشهود ليضبطوه مع المخنث وليتحمل عاقبة ما سيحدث. ظننت أنني نجحت في إخافته لأنني وجدته يلين على غير عادته معي ويظهر التأثر لكلامي ويتظاهر بالتوبة، ولكنه في الحقيقة كان يضمر الشر. وبالفعل قام بالاتفاق مع لوسي بإحكام مؤامرة اتهماني فيها بالتعامل مع الأعداء لأن كتبي ومؤلفاتي تدرس في بلادهم!

على الرغم من أن القاصي والداني يعلمان من هو الذي يظاهر الأعداء ويواليهم ويعمل في خدمتهم، وهكذا نجح الفاسقان في إقصائي عن طريقهما وانتهى بي الأمر سجينًا أبديًّا في سجن الأدغم.. هذه هي حكايتي باختصار». اقترب البصاص من الشيخ شهاب وقال له مدعيًا التأثر: «حكايتك مست قلبي يا شيخنا وأنا أريد أن أتوب عن كل الآثام التي عشت حياتي منغمسًا فيها، أريد بداية جديدة شريفة.. فهل تساعدني؟». نظر الشيخ شهاب في عينيه وسأله ضاحكًا: «هل حقًّا تريد التوبة يا بصاص وتقبل بتحمل تبعتها؟». فقال المطجّن بعد تردد: «بصراحة لا أريد تحمل أي تبعات.. أنا أريد التوبة التي تنقذني من الموت، هل لديك منها؟». وهنا نظر الحسين إلى الشيخ شهاب وانفجرا في الضحك مما قاله البصاص.. التائب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سليمان كاورْك.. ذو الوشاح البرتقالي

كان واضحًا جليًّا أن السلطان البيكيكي في سنواته الأخيرة قد أصبح يتأسى بصديقه السيد «أبي زيد الموحدي» الذي كان واليًا على بلنسية، وينظر إليه باعتباره رجلًا حصيفًا، ملك من الحكمة والعقل السديد ما جعله يلفظ وشائجه العربية والإسلامية ويتجه بكليته نحو الفرنجة آملًا أن يشملوه بعطفهم وحمايتهم وأن يقبلوه واحدًا منهم يقاتل في صفوفهم ويعمل على إسقاط الحصون والثغور الإسلامية لصالح الملوك الإسبان! غير أن الزمان قد قلب لأبي زيد ظهر المجن فاضطر إلى مغادرة بلنسية تحت جنح الظلام بعدما اشتم الأهالي رائحة تقلّبه ورسائله التي كان يبعث بها إلى البابا وإلى ملك أراجون يعرض اعتناق الكاثوليكية، وعندئذ مال الأهالي نحو «أبي جميل زيان» الذي دخل المدينة وصار واليًا عليها. التجأ أبو زيد إلى الملك خايمي الأول ملك أراجون، وكان وقتها يستعد للقيام بحملته لغزو ميورقة، فدخل في طاعته ووقّع معه معاهدة بأن يكون خادمًا في جيشه. ولم يكن أبو زيد وهو يفعل هذا يختلف عن أخيه السيد «عبد الله البياسي» حينما انضوى تحت لواء فرناندو الثالث ملك قشتالة، وتعهد بتسليم الحصون والأراضي الإسلامية إزاء قيام فرناندو بمعاونته على انتزاع العرش من خصمه! وتُجمع الروايات كلها على أن أبا زيد قد دخل في دين الإسبان واختار اسمًا إسبانيًّا هو «بثنتي». وتروي الأخبار أن ابن الأبّار الشاعر والكاتب والمؤرخ الذي كان يصحب أبا زيد قد عاد إلى بلنسية لمّا هاله ما أتاه مليكه المارق وأصبح من أبرز شهود مأساة بلنسية. بعد ذلك قام الملك خايمي بحملته الحربية فحاصر مدينة ميورقة وأخذ يضربها بالمنجنيق، وأحدث جنوده ثغرة في حصونها ونجحوا في تحطيم أربعة من أبراجها، وعند الفجر دخلوا المدينة فلقيهم المسلمون ودار قتال عظيم في الشوارع وانتهت المعركة بمذبحة مروعة قُتل فيها حوالي ثلاثين ألفًا من المسلمين، وتم أسر أبا يحيى والي ميورقة وابنه، وقام الملك الأراجوني بتعذيبه حتى توفي، أما ابنه فقد تنصَّر قسرًا وصار اسمه دون خايمي!

في تلك الأثناء كان السلطان البيكيكي ينتقي من الأعوان أسوأهم ومن الوزراء أكثرهم انحطاطًا، فوزّر كثيرًا من الأوباش والرعاع وجعل منهم أسيادًا فوق العباد فعاثوا في الأرض خرابًا ونشروا العفن في كل البقاع ولم يزالوا يقوضون في الكيان المتداعي. كان من أهم هذه الشخصيات الوزير «سليمان كاورك» ابن شيخ المنسر الشهير «كاورك» وابن «نبهانة» بائعة السمبوسك التي تولت تربيته والإنفاق عليه من صاج السمبوسك الذي كانت تتقن عمله وأحبه أهل قرمونة من يديها. بذلت نبهانة جهدًا كبيرًا من أجل تقويم سليمان ومحاولة إصلاحه، خاصة بعد فرار أبيه كاورك إلى الجبال والتحاقه بخدمة «الشمقمق» قبل أن ينضم لعصابة السحلاوي لاحقًا. لكن جنوح الفتى وميله للجريمة كانا قد استفحلا وصار لا برء منه. ومن المعروف أن نبهانة قد لقيت مصرعها خنقًا على يد ابنها سليمان من أجل الاستيلاء على ما في كيسها من دراهم! وصار الفتى فيما بعد أحد أهم رجال السحلاوي، ويقال إنه هو الذي قام بإلقاء أبيه كاورك الكبير من فوق الجبل حتى يأخذ مكانه في خدمة السحلاوي! ولما ذاع صيت سليمان وروَّعت جرائمه العباد في قرمونة قرر

السلطان أن يتخذه وزيرًا، جريًا على عادته في استوزار السفلة والرعاع أصحاب التاريخ الأسود، لأنه كان يعتقد أن هؤلاء أسلس قيادًا وأقدر على تنفيذ رغباته دون مناقشة وإلا قدّمهم لمحاكمات عادلة كانت لا بد أن تقضي بموتهم! منذ تولى ابن نبهانة قاتل أبيه وأمه الوزارة صار يفرض الإتاوات على الجميع، وغلبه حبه القديم للسُّحت وأكل الحرام، فكان برغم ثرائه الواسع يطيب له أن يدلف إلى المطاعم والحانات في أنحاء إشبيلية، يأكل ويشرب مع أعوانه وينصرف دون أن يدفع شيئًا، فإذا اعترض صاحب المطعم قام بهدم المكان وأدخل صاحبه السجن! وتولى سليمان كاورك بأمر السلطان مسئولية أراضي إشبيلية، فصار يوزعها ذات اليمين وذات الشمال على أصدقائه الأنجاس، وتولى بناء القصور المنيفة في الولاية مستعينًا بالكوارشي وغيره، وكان يمنح زملاءه الوزراء قصورًا على الشواطئ تحيط بها البساتين الغنَّاء حتى يسكتوا عن إجرامه ولا يتناولونه بسوء، وكانوا من جانبهم يخشونه ولا يجرءون على التقوّل في حقه لعلمهم بشراسة طبعه وأخلاقه الوضيعة وإدراكهم حب البيكيكي وإيثاره له، خاصة بعد أن ميّزه عليهم جميعًا ومنحه الوشاح البرتقالي الذي يقدم لأصحاب الأيادي البيضاء من العلماء والمصلحين في الأندلس! والحقيقة أن كاورك في سعيه لتخريب كل ما هو جميل وأصيل في الولاية قام بالدس عند أصدقائه في بلاد الغال لواحد من أمهر المهندسين والبنائين في إشبيلية هو محمد بن حمزة، وكان الملك ريتشارد قد دعاه لحضور حفل في قصره تقديرًا لنبوغه وعبقريته بعد أن قام ببناء قصر الأرشيدوق كاستيللو الذي كان يعد تحفة معمارية من عجائب الدنيا في ذلك الزمان. أرسل كاورك برسالة للملك ريتشارد يحذره من أن ابن حمزة ينوي قتله بالسم، الأمر الذي حدا بالملك أن يقبض على الرجل العظيم ويودعه السجن.

كانت مثل هذه الشخصيات البارزة في تلك الأيام من أمثال لوسي اللوّاط وكاورك المجرم وعجينة الواطي هي التي ألهمت المطجّن البصاص وجعلته يمضي قدمًا في سكة الشر على أمل أن يصير في يوم من الأيام نجمًا في سماء الجريمة، الأمر الذي قد يلفت إليه انتباه السلطان فيجعله من خاصته ويرفعه إلى علّيين، ولم يخطر بباله أن حظه العثر سيوقعه في شر أعماله، وسيجد نفسه ملقى في زنزانة حقيرة رهن المحاكمة التي ستفضي بالتأكيد إلى إعدامه. خرج المطجّن أكثر من مرة لحضور المحاكمة بصحبة الجند واستجوبه قاضي القضاة غير مرة، وواجهه بالشهود الذين وفدوا من إمارة الساحل البندقي وغيرهم، وكانت كل الملابسات والظروف تقود إلى نهاية واحدة: «الموت». كان يعود إلى محبسه يائسًا حيث يجد في انتظاره الحسين رفيق الزنزانة نفسها، والشيخ شهاب في زنزانته المجاورة، ذلك الشيخ الذي حاول أن يشق طريقًا إلى الحرية عبر الحفر في الجدار فوجد نفسه بعد سنين من العمل الدءوب في حِجر المطجّن البصاص! اعتزم الثلاثة أن يواصلوا الحفر ليل نهار عسى أن تحملهم أقدارهم إما إلى الغابة شرق سجن الأدغم وإما إلى النهر في جهة الغرب. وشقوا نفقًا تحت الأرض مستعينين بالحجارة المدببة التي انتزعوها من الجدران، ويومًا بعد يوم صار النفق ممرًّا طويلًا وأحسوا أن الأمل يقترب. في الوقت نفسه لم يكن المطجّن يركن إلى حلم الخروج عبر الحائط وحده، وإنما كان يواصل مد الجسور مع الحراس ومع قائدهم على أمل أن يقوموا بتهريبه للحصول

على الكنز المخفي في قاع النهر، حتى كان يوم استدعاه قائد السجن وانتحى به جانبًا وأسر في أذنه أن يستعد عندما يجن الليل لأن الليلة الموعودة قد أتت وسيقوم بتهريبه، وسيمضي به نحو الحرية التي ستبدأ بعد أن يضع يده على كنز المطجّن البصاص المخبوء في جوف النهر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

العالِم.. والقرد

كان همَّام بن عليش الكوارشي يقضي أيامًا تعيسة للغاية بمحبسه في سجن الأدغم، وبدأ اليأس يتسلل إلى نفسه مع توالي استدعائه للمثول بين يدي ابن عقيل قاضي القضاة. وكان يتحسب للقاء تمام الرومي والد إيزابيلّا الذي قاموا بطلبه للشهادة وإرسال الرسل إليه في طليطلة حيث يقيم، لكن هذا اللقاء لم يتم على أية حال لأن تمام الذي هدّته المأساة لم يجد في نفسه رغبة في تجديد الأوجاع من خلال لقاء من قتلا ابنته غدرًا وغيلة وحرماه من المال الوفير الذي كانت تجلبه له، فلم يحضر.

في ذلك الوقت ساءت أحوال العباد في أنحاء إشبيلية نتيجة الظلم والجور وطغيان العسس. وحملت الأنباء الواردة من شرق الأندلس أخبارًا سيئة عن حصون تسقط كل يوم في يد الأعداء. وكان الملك خايمي الأول ملك أراجون قد عقد اتفاقًا مع فرناندو ملك قشتالة على تقسيم ممالك الأندلس فيما بينهما، وكانت بلنسية من ضمن المناطق المعقود فتحها إلى الملك الأراجوني، فسار في الطريق إلى بلنسية وابتدأ بالجزائر الشرقية ففتحها ومن بعدها فتح ميورقة، وكانت بلدة بريانة الواقعة على البحر شمال بلنسية من أهم البلاد وأكثرها حصانة فحاصرها واستولى عليها ثم استولى على ثغر قسطلونة، وقصد إلى حصن أنيشة فحاصره واتخذ منه قاعدة للإغارة على نواحي إقليم بلنسية. وهنا شعر «زيان» والي بلنسية بالخطر يتعاظم فجهز جيشًا لملاقاة الأراجونيين وسار في قواته نحو تل أنيشة ووقعت معركة عظيمة انتهت بهزيمة المسلمين. وكان بين قتلاهم عدد كبير من العلماء في مقدمتهم كبير علماء الأندلس ومحدثيها «أبو الربيع بن سالم الكلاعي» وكان جنديًّا وافر الشجاعة يشهد معظم الغزوات ويشترك في القتال ويحث المنهزمين على الثبات ويصيح بهم: «أعن الجنة تفرون؟» حتى قتل ورثاه ومن سقط معه من علماء بلنسية تلميذه الكاتب ابن الأبّار القضاعي بقصيدته الشهيرة التي مطلعها:

أَلِمَّـا بأَشْـلاء العُـلا والمَكَـارِمِ

تُقَدُّ بأَطْرَافِ القَنَا والصَّوَارِمِ

وعُوجا عَلَيها مأْرَبًا وَحفَاوَةً

مَصَارِعَ غَصَّتْ بالطُّلى والجَماجِمِ

نُحَيِّي وُجُوهًا في الجِنَانِ وَجيهَةً

بمَـا لَقِيَتْ حُمْـرًا وُجُـوهَ المَلاحِمِ

وكانت هزيمة المسلمين الفادحة في أنيشة على هذا النحو نذيرًا بانهيار قوى بلنسية الدفـاعية وبأن النهايـة قد أضحت وشيكة الوقوع.

في هذه الأثناء تذكر الروايات أن قرمونة رغم مآسيها كانت تضحك من الشيخ عجينة الواطي الذي لا تنتهي فضائحه. كان الرجل قد ساءه تناول العامة لسيرته في الطرقات وتداولهم النكات حول علاقته بالأعداء وتعامله المريب معهم، وتآمره

على المسلمين وهو - يا للمفارقة - شيخ الجامع الكبير الذي قام أسلافه بجمع الشمل والحض على الجهاد وتزيين الشهادة للمؤمنين، فإذا به ينشر الخور والوهن ويسخر من الشهادة في سبيل الله ويؤثم قتال الأعداء ويتناول الطعام على مائدة فرناندو الذي خلّفت غاراته على الثغور الإسلامية مئات الآلاف من الأطفال اليتامى والنساء الأرامل. ضحكت المدينة من حيلته الجديدة التي استمع فيها لنصح صديقه السحلاوي: طلب منه السحلاوي أن يتمارض وأن يلزم بيته ويرقد في الفراش حتى ينال عطف الرعية فيكفوا عن الدعاء عليه في صلواتهم بأن يحرقه الله في نار جهنم وأن يحشره مع أصدقائه لوسي والسحلاوي وكاورك والبيكيكي وفرناندو القشتالي. رقد عجينة عدة أيام وذاع خبر مرضه وتناقله الناس بسرعة، فعزاه بعضهم إلى إفراطه في لقاء لوسي الوزير وأن الله قد انتقم منه لخروجه عن حدود الله وقيامه بزلزلة عرشه كل يوم. غير أن غالبية الناس قد فطنوا للحيلة وأدركوا أنه يريد استدرار عطف الناس الذين لا يمكن أن يشمتوا في مريض ولو كان بسفالة عجينة! فشلت الحيلة إذن ولم يعُدْه في مرضه المزعوم سوى أصدقائه المكروهين من الناس، ومنهم «مسرور» مضحك السلطان الذي كان يدير أشهر مجلس للأنس في الولاية، وهذا المجلس يتم نصبه كلما شعر السلطان البيكيكي بالملل وأرادت الحاشية أن تسرّي عنه، وكانوا يقدمون في مجلسهم فقرات مضحكة ومسلية للغاية، كان مسرور يتفنن في إتقانها حتى يجلب السرور والسعادة لقلب سيده. وكان عز الدين أنكش أحد النجوم المتلألئة في مجلس الشراب والأنس هذا، وأيضًا همَّام بن عليش الكوارشي الذي غضب عليه السلطان البيكيكي وألقى به في سجن الأدغم لتتم محاكمته على جريمة قتل المغنية الرومية إيزابيلّا.

وممن زاروا عجينة أيضًا في مرضه الوزير «مريد شيبوب» شريك مسرور في مجلس الأنس ومنظّم فقراته. كان مسرور يقوم بتقديم فقرات الغناء والتمثيل وفقرة الحاوي، وكان شيبوب يتولى فقرة القرد والأراجوز، ويتولى بنفسه إطعام القرد وتعليمه الحركات الجديدة التي تسلي السلطان وتجعله يتقافز من السعادة. كما كان شيبوب يقوم أيضًا بكتابة النصوص وشرح ما غمض منها على النظارة إذا صعُب عليهم فهم مغزاها الجالب للأنس والسرور. ومما يؤسى له أن كلا من مسرور وشيبوب كان في الأساس رجل علم شرعي ومن فقهاء الشريعة الذين تتلمذ عليهم طلاب العلم ومريدوه في قرمونة وغيرها من أقضية إشبيلية. ولا ينسى الناس صرخة وجع توجهت بها «نائلة بنت الزيني» وهي من فضليات سيدات المدينة علمًا وخلقًا إلى أستاذها القديم شيبوب الذي درست عليه علوم الدين والفقه عندما رأته يعمل مضحكًا للسلطان ويهجر مجالس العلم إلى مجلس الأنس واللهو. كانت نائلة قد ذاعت شهرتها بالمدينة بعد أن قدمت شهادتها الدامغة ضد «المصطفى بن الفقيه»، ذلك الدنيء الذي طعن رجلًا فاضلًا في ظهره بخنجر مسموم في سوق المدينة لأنه نفس عليه علمه وفضله، وكان ذلك على مرأى من جمع غفير من الناس. هذا وقد خشي كثير من الرجال أن يشهدوا بالجريمة، وأفزعهم أن يواجهوا بأس من يحمون ابن الفقيه، ووقفت وحدها نائلة وشهدت بما رأته، لكن القوم نجحوا في تهريب القاتل وأدخلوه عند شيبوب ومسرور وطلبوا من الرجلين أن يتعهدا بالرجل ويمنعاه من مغادرة مجلس الأنس حتى لا يفترسه الناس بالخارج!

وجهت نائلة بنت الزيني رسالة إلى أستاذها القديم شيبوب ذكرته فيها بدروسه القديمة وتعاليمه التي شربوها عنه فصاروا أصحاب فضل ومكانة بين الناس، وارتد هو مشرفًا على القرد بالقصر السلطاني! وكتبت له بنت الزيني ترجوه أن يعود العالم الجليل الذي خبروه وتتلمذوا على يديه، وفي سبيل هذا كتبت له تذكره بقول الإمام الغزالي:

خذتَ بأعضَادِهم إذ ونوا

وخلّفك الجَهدُ إذ أسْرَعوا

فمَالكَ تَهْدِي ولا تَهْتدِي

وتُسْمِع وَعْظًا ولا تسمَـعُ

فيـا حَـجَـرَ الشَّـحْـذِ حتى متـى

تسنّ الحَديدَ ولا تقطَـعُ

الذي لم تعرفه نائلة بنت الزيني أن أستاذها أجاد تمثيل دور الرجل الفاضل زمنًا، وكمن طويلًا في انتظار الثمن المناسب حتى يبيع نفسه. فلما أتته الغواية تسعى لم يفلت الفرصة، وقدّم درسًا بليغًا في التفريط عندما استدعاه السلطان البيكيكي إلى قصره وأذاقه أصنافًا من الطعام لا مثيل لطيبها، مخلوطة بالتوابل الهندية التي كانت تصل إلى السلطان من بلاد الفرنجة، وعندما وقع شيبوب في غرام المقلوبة بلحم الضأن والكسكس بمرقة العلّوش، كانت إرادته قد شُلت وأعصابه تهاوت وعزيمته تفتتت ووقع أسيرًا للطعام السلطاني، فنبذ العلم وتولى مسئولية القرد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الملكة فيولانتي.. والبعرور

اشتد الحصار على بلنسية وأحكم الملك خايمي الأول سيطرته على المداخل والمخارج المؤدية إلى المدينة، وكان رهانه أن تستسلم طوعًا بعد أن تنفذ منها المؤن وينال الجوع من عزائم الرجال. حاول الملك الأراجوني أن يقتحم الرصافة ففشلت المحاولة وردهم المسلمون بخسارة كبيرة. وبرغم قسوة الظروف ونقص الإمدادات كان أهل بلنسية يخرجون في جماعات لقتال الإسبان، ووقعت أعنف المعارك بين الفريقين حول بلدة سليا ضاحية بلنسية الجنوبية وانتهت باستيلاء الأراجونيين عليها.

كان والي بلنسية قد أرسل في طلب النجدة والإمداد من مرسية القريبة، وأيضًا من دولة بني حفص بتونس، ومن عميدها الأمير أبي زكريا الحفصي الذي لم يتردد في إرسال أسطول يحمل المؤن والمساعدات. وصل الأسطول إلى «خليج جراو» بحذاء مصب نهر الوادي الكبير، لكن الحلة الأراجونية كانت تحتل الساحل فلم تستطع السفن أن تضع أحمالها وأقلعت صوب الجنوب، وانتهى الأمر بأن أفرغت السفن التونسية شحنتها في ثغر «دانية» بعيدًا عن بلنسية المحاصرة. وهكذا فشلت محاولة الإنجاد ومد المدينة المحاصرة بالمال والغذاء والسلاح بسبب حصار الأراجونيين لها ومنعهم أي إمدادات من الدخول، كذلك بسبب خيانة أبي زيد الموحدي لأهله وانضمامه للجيش الإسباني، وأيضًا لإصرار السلطان البيكيكي على عدم فتح بوابته لأهل بلنسية المنكوبين ورغبته في رؤيتهم مدحورين بسبب خلافاته القديمة مع واليها، واستجابة لأوامر الملك خايمي الذي قام بإرسال زوجته الملكة «فيولانتي» التي كانت تصحبه في هذه الحملة، وقام بإيفادها للقاء السلطان البيكيكي لضمان ولائه التام قبل أن يقوموا باقتحام المدينة. دخلت فيولانتي وتم استقبالها في قرمونة استقبالًا رسميًّا رائعًا، وخطرت في طرقات إشبيلية في زهو وخيلاء، وقررت إمعانًا في إذلال المسلمين أن تلقي خطابًا لها تتوعد فيه أهل بلنسية بالويل والثبور وعظائم الأمور إن لم يكفوا عن مناوشاتهم ومحاولاتهم صد العدوان ولم يذعنوا لمشيئة السيد «الكنبيطور». كان يصحب الملكة فيولانتي في جولتها بالولاية الوزير «بعرور» الذي كان مكلفًا طوال الوقت بحمل الرسائل للولاة والملوك واستقبال من يفد منهم إلى البلاد والإشراف على راحته والعمل على حُسن ضيافته، وخصوصًا الزوار الآتين من قشتالة وليون وأراجون، أي من كانوا في حالة حرب متصلة مع أهل الأندلس وكان ملوكها مخضبة أياديهم بالدماء الزكية لأبناء الولايات والمدائن الأندلسية. وقف البعرور بجانب الملكة فيولانتي وهي تتوعد أهل بلنسية بأنها ستهدم دورهم وستنتهك حرماتهم وتقلع زروعهم، وستدك عليهم مساجدهم وجامعاتهم وستطحن عظامهم وستسمل أعينهم وتشرب كئوس البورجوندي في جماجمهم. وكان الوزير بعرور يقف إلى جوارها مبتسمًا وقسمات وجهه تنطق بالسعادة وملكة العدو تهدد إخوة له بالفناء وتتوعدهم بالجحيم، وكان البعرور قد قدم لأسياده في أراجون من قبل أكثر من عربون محبة مثل تهديده الشهير أنه سيكسر رِجل أي مسلم يحاصره القشتاليون أو الأراجونيون إذا ما فكر في الفرار بأسرته منَ الجحيم والالتجاء إلى بلاده. وعندما أنهت فيولانتي خطبتها

النارية وخطت من على منصة الخطابة كادت قدمها تزل، فخف إليها البعرور مادًّا يدًا حانية أخذت فيولانتي في رفق، وقد حرص على إبقاء راحة يدها في يده لفترة أمدها خلالها بالطمأنينة والأمان ونقل إليها نبضاته التي تنطق بالثناء والعرفان لها على تعطفها بلقائه وتفضلها بإبقائه في منصبه، إذ كانت دائمًا ما توصي به السلطان البيكيكي وتخبره أن هذا الرجل يحسن صنعًا ويعمل دائمًا في خدمة الكنبيطور خايمي الأول ملك أراجون! وما كادت فيولانتي تعود حتى ضربت المدينة بالمنجنيق وأطلقت عليها سهام النار وقامت بالوفاء بكل ما وعدت به عندما كانت تقف إلى جوار البعرور.

في تلك الأثناء كان المطجّن البصاص يغادر زنزانته عند الفجر بصحبة الحرس الذين أخذوه إلى شمروخ قائد السجن. تقدم منه شمروخ وأمسكه من ساعده ثم همس في أذنه: «سأخرج بك الآن فارتد هذه الملابس ولا تحدث جلبة». وقدم إليه ملابس مثل تلك التي يرتديها حراس السجن. خلع المطجّن البصاص رداء السجن وصار لا يفترق عن الحراس، ثم سار مع شمروخ وحفنة من رجاله، ودخلوا ساحة الخيول وركب كل منهم فرسًا وانطلقوا من جهة الغابة قاصدين النهر من جهته الشمالية، وعند نهاية الغابة أبصروا جمعًا من الفرسان يقف على بوابة المدينة.. تقدم إليهم شمروخ وانتحى جانبًا برئيسهم ولم يكذب عليه.. أخبره أن المطجّن البصاص معه وأن له نصيبًا في الغنيمة بعد أن يصل معه إلى الكنز. في تلك الفترة كان من الأمور الشائعة في قرمونة هروب المجرمين وفرارهم خارج الديار في حماية العسس نظير أجر معلوم، وكلما زادت قيمة المجرم وعلا مقامه وعظم جرمه، كان تضاعف المبلغ المطلوب لتهريبه، وكان هذا مما يوفر للعسس دخلًا إضافيًّا وحياة رغيدة، وقد دفعهم هذا لكراهية الشرف والبرم بالأخلاق والضيق بالواجب، فأحبوا الإجرام ورحبوا بالمجرمين، حتى إن الأكابر بالمدينة لم يكن يزعجهم حتى المثول أمام القضاء، ولم تكن الأحكام التي يصدرها قضاة المدينة تفت في عضدهم لأنها لا تجد من ينفذها من جهة ولأنهم يستطيعون الهرب عند اللزوم! وبالرغم من كل هذا فإن المطجّن البصاص وهمَّام الكوارشي لم يكونا مثل أي مجرم، وقضيتهما لم تكن مثل أي قضية، ذلك أن فارس المختوم حاكم إمارة الساحل البندقي لم يكن ليقبل أي عبث معه في هذا الأمر وكان كفيلًا بأن يقض مضاجعهم ويحول نهارهم إلى ليل حالك لو فكروا في الغدر به وتهريب المجرمَيْن.

أعرب رئيس الدورية لشمروخ قائد سجن الأدغم عن مخاوفه، لأن المطجّن ليس كأي سجين وأبا الحسن المراكبي رئيس الجندرمة في الولاية لن يرحم أحدًا إذا هرب المطجّن لأي سبب، ووقتها لن ينفعه الكنز لأن رقبته ستطير قبل أن يلمس جوهرة منه. طمأنه شمروخ بأنه ليس ساذجًا ليغامر بحياته في أمر كهذا.. كل الحكاية أنه سيحصل على الكنز ثم يعود بالمطجّن إلى السجن على الفور، ووقتها سيحصل كل من ساعد في إتمام المهمة على نصيبه من الجواهر.

كان شمروخ قد أعد العدة ورتب لأمر مختلف تمامًا. كان قد بعث بأسرته إلى مراكش، وأضمر أن يلحق بهم ومعه الكنز بعد أن يقتل المطجّن ويضلل رجاله، حيث نوى أن يبتاع قصرًا كبيرًا على البحر شبيهًا بقصر السلطان البيكيكي وأن

يعيش عيشة الملوك ما بقي له من عمر. في تلك الأثناء كان المطجّن البصاص يركب خلف أحد الفرسان ويقف محاطًا بالحراس من كل جانب ويرمق المحادثات التي تجري على مقربة منه، وقد حدّثه قلبه وغريزته بأنهم ينوون الغدر به، ولِمَ لا وهو واحد منهم، عاش بينهم وخبر كيدهم ولطالما كان شريكًا في مؤامراتهم.
استأنف الركب مسيره وساروا بحذاء النهر، ونظر شمروخ إلى المطجّن متسائلًا: «أين المكان يا رجل؟». أجاب المطجّن: «أخشى أن الأماكن كلها قد تشابهت عليّ ولم أعد أدري أين بالتحديد دفنت الكنز!». هنا كشر شمروخ عن أنيابه وأمر بالرجل فأنزلوه من فوق ظهر الحصان وهوى بسوطه على المطجّن في قسوة بالغة فأسال الدم من وجهه، الأمر الذي دفع المطجّن إلى أن يصرخ قائلًا: «نعم نعم، تذكرت مكان الكنز، سآخذكم إليه لكن كفوا عن ضربي.. بالله عليكم لا تضربوني».
قال شمروخ: «لا تأت على ذكر الله يا بصاص فلا أنت تعرفه ولا نحن كذلك». ثم أطلق ضحكة عميقة سُمعت أصداؤها في الغابة المجاورة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

هروب المطجّن البصاص

دافع أهل بلنسية عن مدينتهم دفاعًا مستميتًا برغم الحصار الخانق وبرغم تواطؤ الإمارات والمدن العربية ووقوف بعضها بشكل صريح لا مواربة فيه إلى جانب الأراجونيين في حملتهم ضد بلنسية بنيّة غزوها وإنهاء حكم المسلمين لها. دافع الحكام الذين نخر فيهم السوس عن العدوان الأراجوني والتمسوا الأعذار للملك خايمي الأول والملكة فيولانتي وقدموا لهما كل المساعدات الممكنة لأجل دحر بلنسية وأهلها المقاتلين. ووقف البعرور وقفة مخزية حين شاهده العامة إلى جوار الملكة فيولانتي مطأطئ الرأس وهي تلقي خطبة من قلب إشبيلية تتوعد فيها أهل بلنسية بالدمار. لم يكتف البعرور بتأييد الأراجونيين ضد أهله وعشيرته وإنما انطلق بفاحش السباب ضد الأشراف من الرجال الذين وقفوا دائمًا في وجه الإسبان وقاوموا مملكة قشتالة ومملكة أراجون وذادوا عن ديار المسلمين، ولم يسلم من لسانه البذيء البطل «يوسف بن تاشفين» صاحب النصر المدوي على الإسبان في موقعة الزلاقة ووصفه بالمتهور، والبطل «نصر الله» الذي حقق آخر الانتصارات عليهم رغم قلة الزاد ونقص السلاح وتواطؤ الممالك المجاورة ومن أشهرها ممالك خليج البيسان وعلى رأسها إمارة آل مسعود التي كان أمراؤها يدفعون أموالًا طائلة لتمويل حملات الفرنجة ضد أشقائهم في الأندلس.

كان أهل بلنسية المقاتلون يعانون الحرمان والجوع داخل مدينتهم بينما الإسبان في سعة تأتيهم المؤن بانتظام، وكان الجيش الأراجوني يضرب المدينة بالآلات الثقيلة ليل نهار، والبلنسيون مع كل هذا البلاء يخرجون لمقاتلتهم وتنشب المعارك الكبيرة بين الفريقين. استمر الحصار الخانق حتى فنيت الأقوات وعدمت الموارد واشتد البلاء بأهل المدينة وثلمت الأسوار والأبراج حتى اضطر الأمير زيان إلى التسليم، ودخل خايمي الفاتح ملك أراجون وزوجته الملكة فيولانتي وأكابر الأحبار والفرسان الأراجونيين والقطلان مدينة بلنسية، ورفع علم أراجون على قمة سور المدينة وتحولت المساجد في الحال إلى كنائس وطمست قبور المسلمين وخرج أهلها جماعات في طريقهم إلى الشتات.

كانت بلنسية قد سقطت من قبل في يد الإسبان عام ١٠٩٤، وظلت تحت حكمهم ثماني سنوات قبل أن يستعيدها المرابطون مرة أخرى.. ولكن الآن من يستعيدها؟

أذكت محنة سقوط بلنسية فجيعة الشعر في الأندلس، فانبرى الشعراء يعبرون عن لوعتهم وأساهم على سقوط المدينة العظيمة التي ظلت عربية لمدة خمسة قرون وربع قرن، وترجع وفرة الأشعار التي بكت بلنسية بالتحديد إلى وجود عدد من أكابر الشعراء من أبناء بلنسية مثل ابن الأبّار وأبي المطرف بن عميرة الذي كتب باكيًا يقول:

ما بَالُ دَمعك لا يَنـي مذْرارهُ

أم ما لِقلْبك لا يَقِرُّ قَرارهُ

اللـوعـةُ بيـن الضُّلـوع لظَاعـنٍ

سارت رَكائبهَ وشطتْ دارهُ

أم للشَّبابِ تَقَاذفَتْ أوطَانهُ

بعد الدنوّ وأخْفَقتْ أوطارهُ

بَحرٌ من الأحْزانِ عَبَّ عبابُهُ

وارتَجَّ مـا بين الحشـا زخَّارهُ

كانت الأمور تجري على هذا النحو في بلنسية، بينما على شط نهر تجاريتي بقضاء قرمونة وقف المطجّن البصاص وسط القائد شمروخ ورجاله يرتجف من الرعب ويردد في ذلة ماكرة: «سنجد الكنز أيها القائد، أعدك بأن أستخرجه لك، صندوق الجواهر سيكون بين يديك بعد قليل، فقط مُرهم بأن يتوقفوا عن ضربي». أمرهم شمروخ بأن يتركوه، فسار المطجّن بحذاء النهر يتفقد المواقع ويقف يتطلع إلى الأفق ثم يستأنف المسير وإلى جواره الفرسان وقد أوشك صبر قائدهم على النفاد، وفجأة صاح المطجّن: «ها هنا ها هنا، هذا هو الموضع الذي دفنت أسفله الكنز، فإذا سمحتم لي هبطت إلى قاع النهر واستخرجته لكم، على أن تتركوني أمضي لحال سبيلي ولا تعودون بي إلى السجن». أمر شمروخ أحد رجاله ـ وكان غواصًا ماهرًا ـ بالنزول مع المطجّن لمعاونته في فك الصندوق من بين الصخور والصعود به. غاص الرجلان في قلب النهر وطال غيابهما بينما شمروخ قائد سجن الأدغم ينهشه القلق ويقف بين فرسانه حائرًا لا يدري ماذا يفعل، ثم أمر فارسًا آخر بالنزول ليستكشف ما يحدث بالأسفل خاصة أنه لا قدرة لأحد على البقاء تحت الماء كل هذا الزمن. وبينما الرجال على الشط ينتظرون لمحوا على البُعد جثة طافية فوق سطح النهر فهرعوا نحوها وسحبوها خارج الماء فإذا هي جثة زميلهم الذي هبط مع المطجّن لأسفل النهر ولسانه متدليًا خارج فمه. أدرك القوم على الفور أن البصاص قد خنق الرجل ولاذ بالفرار. صرخ شمروخ آمرًا رجاله بالانتشار على طول ضفة النهر للبحث عن السجين الذي خدعهم وهرب، وأيقن شمروخ سوء المصير ولاح أمام ناظريه شبح المشنقة التي سيعلّق فيها. لقد كان يُمني النفس بالحصول على الجواهر ثم قتل الوغد البصاص قبل أن ينطلق قاصدًا الجنوب في طريقه لعبور البحر إلى مراكش حيث ينتظره المركب الذي أعده لهذا الغرض للحاق بأسرته، والآن تقلصت أحلامه وصار يأمل فقط بالعثور على المطجّن والعودة به إلى السجن.

كان المطجّن قد باغت الحارس في قاع النهر والتف حوله وأطبق بكلتا يديه على عنق الرجل الذي حاول المقاومة، لكن المطجّن استماتت أصابعه تسحق حنجرة الحارس وتكسر عنقه. بعدها سبح البصاص مبتعدًا، وكان يخرج رأسه للحظات يأخذ فيها بعض الهواء ثم يعود للأسفل، وفي كل مرة كان يلمح على البعد شمروخًا وفرسانه يتحركون، هكذا حتى شحبت رؤيتهم بعد زهاء ساعة من السباحة فأدرك أنه ابتعد عن الخطر ولو قليلًا فخرج من ضفة النهر الأخرى وقصد أحراشًا مجاورة حيث ارتمى على الأرض خائر القوى وذهب في سبات عميق. ظل المطجّن في مهجعه ساعات طويلة حتى أيقظته جلبة وصياح ففتح عينيه واعتدل

ليرى من بين الزرع أنوارًا تضيء صفحة النهر القريب، فلما دنا قليلًا وهو محاذر أبصر الجنود يذرعون الشاطئ بمشاعلهم وقد أحالوا الليل الحالك إلى نهار فعرف أن البحث عنه قائم على قدم وساق. كمن المطجّن في موقعه ولم يأت بأي حركة، لكنه كان مُوقنًا أنهم سوف يأتون إلى حيث يقف بعد قليل من الوقت ولن يهدأوا حتى يعيدوه إلى السجن ووقتها سيكون نكاله شنيعًا. وبالفعل لم يمض وقت طويل حتى شم رائحة شياط وشاهد النار تنشب في الزرع من بعيد، وأدرك أنهم أضرموا النار في الأحراش حتى يرغموه على الخروج، فأسرع يعدو وسط الزراعات التي تخفيه وهو عاقد العزم على ألا يستسلم ولو كان الثمن حياته. أخذ الدخان يتزايد وكاد يخنقه، وكلما ابتعد لاحقته النيران المجنونة التي أخذت في التهام الزرع بسرعة كبيرة وليس من سبيل إلى إيقافها. عرف المطجّن أنها النهاية فانهار وسقط على وجهه ومادت الأرض به وقد سد الدخان أنفه وملأ رئتيه وأبصر ملاك الموت ماثلًا أمام عينيه. لكن من قلب سكرات الموت سقطت فوق رأسه قطرات من الماء ظنه ماء المُهل الذي توعد به الله الكفار والمجرمين، لكن ما لبث أن أدرك أنها قطرات المطر الذي أخذت شدته تتزايد وزخاته تتساقط في مجموعات ثقيلة نجحت في إطفاء النيران التي كانت تحاصره من كل جانب ووجد نفسه وقد نجا من الحريق بينما الجنود يبتعدون وصوت حوافر خيولهم يتناهى إلى سمعه وهو ملقى على الأرض بين الأحراش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كهف العفريت

كانت معركة العقاب التي وقعت عام ١٢١٢ بين تحالف ملوك إسبانيا ضد الموحدين قد كتبت صفحة جديدة في تاريخ الأندلس. وقد ظلت آثار الهزيمة الساحقة التي مُني بها المسلمون تطاردهم وتؤثر في معنوياتهم طيلة ما تلاها من سنوات حتى إننا نستطيع القول إنها كانت بداية الانهيار الحقيقي للأندلس وتساقط ممالكه وإماراته الواحدة تلو الأخرى. عندما احتشدت جيوش قشتالة وليون مدعومة من البابا الذي حرص على منحها الصفة الصليبية استعدادًا للانقضاض على إسبانيا المسلمة، قام الخليفة «محمد الناصر الموحدي» بالعبور إلى الأندلس في جيوشه ردًّا على هذا التحدي السافر، فضاعف حشوده في منطقة جيّان. وكان الجيش القشتالي قد استكمل عدته ووفد لمؤازرته سيل من الأحبار والفرسان، والتقى الجيشان في هضبة العقاب أسفل جبال «سييرا مورينا» وكانت الموقعة المشئومة التي هُزمت فيها الجيوش الموحدية شر هزيمة ومُزقت شر ممزق.

الأمر الجدير بالتدبر والذكرى هو أن ثلاثين سنة فقط في عمر الدولة الإسلامية في الأندلس.. ثلاثين سنة هي التي حدث فيها كل هذا الانهيار. الدولة التي حكمت شبه الجزيرة الأيبيرية لسبعة قرون من الزمان فقدت أكثر من ثمانين في المائة من أراضيها وأحوازها وثغورها وقلاعها وحصونها في ثلاثين سنة. لهذا فقد حق للإسبان أن يحتفوا بالملك فرناندو الثالث ويعدّونه بطلهم الكبير قاهر الأندلس، الذي كانت السنوات الثلاثون الحافلة بالانتصارات كلها تحت حكمه.

كان الناس في قرمونة بعد سقوط بلنسية عام ١٢٣٨، ومن قبلها قرطبة التي سقطت قبل سنتين عام ١٢٣٦، قد أصبحوا يتوقعون سوء المصير، وأحزنهم بشدة موقف السلطان الموالي للأعداء وخنوثة وزيره البعرور وانسحاقه الشديد أمام الملكة فيولانتي كما أسلفنا. والغريب أن الوزير بعرور في تبريره لموقفه الرخيص قد أدان أهل بلنسية وحمّلهم مسئولية العدوان الواقع عليهم واتهمهم زورًا بأنهم استفزوا الجيش الأراجوني بدفاعهم عن أنفسهم، وكأنه كان يتعين عليهم أن يستسلموا للملك خايمي وجنوده وينتظروا الذبح! ومما يزيد الأمر أسى أن كل من دعا للجهاد تم التشهير به وسبّه من جانب الأوباش الذين أطلقهم الوزير بعرور، فألصقوا بالشرفاء والوطنيين كل نقيصة ونسبوا لمن يطلب مقارعة الفرنجة ورد العدوان أنه يُعرِّض ديار المسلمين للخطر، وكأن الأمان هو في إعانة العدو القوي والتخلي عن الشقيق الضعيف، بل والمساهمة في حصاره وخنقه ومنع المؤن والسلاح والدواء عنه!

لم ينسَ البلنسيون وهم يجمعون أغراضهم ويودعون وطنهم للمرة الأخيرة في رحلة الشتات أن مدينتهم لم تكن الأولى ولن تكون الأخيرة، فمدينة قرطبة التليدة ذات التاريخ العظيم قد سقطت أيضًا بسبب تناحر ابن هود وابن الأحمر على المُلك بعد أن ضحّيا بالحاضرة الإسلامية على مذبح أطماعهما الشخصية وتشبثهما بكراسي الحكم.

في ذلك الوقت وقع خبر هروب المطجّن البصاص على السلطان البيكيكي كالصاعقة وخشي أن يكون لهذا الحدث تداعيات خطيرة على علاقته بإمارات خليج

البيسان وخاصة إمارة الساحل البندقي وأميرها فارس المختوم الذي قد يسيء تفسير الأمر ويتصوره تهاونًا من جانب السلطان مع قاتل أثيم اعتدى على الإمارة الهادئة ونَفَّذ فيها جريمة شنعاء. فثار ثورة عظيمة على وزرائه ثم دعا إلى تكتم الأمر وعدم الإعلان عنه بين الناس، وأصدر أوامره للسيد أبي الحسن المراكبي رئيس الجندرمة بسرعة العثور على المجرم الهارب وإلا لقي مصيرًا أسود، فقام هذا بالقبض على شمروخ قائد سجن الأدغم، واعترف جنوده بكل شيء وأقروا بما كان فأودعوا جميعًا السجن وضاعت أحلام شمروخ في الثراء. وأطلق المراكبي جنوده في جميع أنحاء المدينة يسدون مداخلها ومخارجها ويضعون الأكمنة على الطرق الرئيسية، وتم القبض على عائلة المطجّن بأكملها والاحتفاظ بهم كرهائن حتى يقوم المطجّن بتسليم نفسه، وهو الأسلوب الذي درجت شرطة الولاية على القيام به مع المطلوبين، وكانت نتائجه في الغالب باهرة، خاصة أن معظم المطلوبين كانوا من الشرفاء والأبرياء الذين لا يحتمل أحد منهم أن تتم إهانة أمه أو أبيه، أما بالنسبة للمطجن البصاص فالأمر كان مختلفًا، ولم يكن لهذا الحل أية فائدة، فالرجل يملك من الخسة والأنانية ما يجعله يضحي بالعائلة كلها ليحظى هو بالأمان!

عندما سمع همَّام بن عليش الكوارشي بما حدث اغتم غمًّا كبيرًا لفرار القاتل الذي استأجره وبقائه وحده رهن الحبس، غير أن السحلاوي قد طمأن أباه الكوارشي الكبير بأن ما حدث هو في صالح همَّام، بل قل هو هدية من السماء، إذ إن اتهام ابن الكوارشي قائم فقط على شهادة المطجّن وباختفائه تتم هلهلة القضية فتضيع ولا يتبقى منها شيء.

كان المطجّن بعد أن نجا من الحريق الذي أطفأه المطر الغزير، وبعد انصراف الجنود الذين يئسوا من العثور عليه قد هام على وجهه يضرب في الأرض، وقد أحس أن الأقدار تقف إلى جانبه، حتى وصل إلى منطقة جبلية عُرفت بـ«كهف العفريت» قيل إن الجان والعفاريت يسكنونها، كما شاعت بين الناس أسطورة الحيوانات متعددة الرءوس التي تخرج منها فتختطف الفرائس وتعود لتلتهمها داخل الكهف، وهو الأمر الذي حدا بالأهالي إلى تجنب الاقتراب منها، بل والارتعاد لمجرد ذكر اسمها.

كان المطجّن يقضي نهاره نائمًا ثم يهبط على تخوم المدينة بعد أن يجن الليل ويسطو على أحد المنازل فيسرق ما تيسر من طعام، أو يعترض سبيل بعض العائدين ليلًا ويجردهم من ممتلكاتهم ويعود تحت جنح الظلام إلى مخبئه فيقبع بأحد الكهوف التي كان يتشارك فيها مع الخفافيش. وكانت الأيام الرهيبة التي قضاها في السجن قد زادته توحشًا على توحش فأصبح لا يخاف الكهف المظلم ولا يرهب صحبة الخفافيش، وأصبحت النفس البشرية لا تساوي عنده شيئًا، فسهل عليه في سبيل الحصول على الطعام والماء أن يرتكب جرائم قتل لمن يعترض سبيله. وكان في ذلك لا يبالي بتعدد ضحاياه حيث إنهم لن يشنقوه غير مرة واحدة، وكان يتم العثور على جثث ضحاياه في الصباح ويفشل العسس في العثور على الجاني.

ويبدو أن البقاء بكهف العفريت قد أصاب المطجّن بما يشبه اللوثة، وإحكام العسس الحصار حول المدينة للقبض عليه دفعه إلى اليأس من فكرة استخراج الكنز وعبور

الحدود، فانتابته فكرة مجنونة سيطرت عليه سيطرة تامة، وهو من جانبه أحس بالانتشاء للفكرة التي جعلت عينيه تلمعان من الإثارة، فانتظر حلول الليل كالعادة وهبط إلى المدينة ومضى يتحسس خطاه في دروبها وكان لديه حدة بصر في الظلام كرفاقه الخفافيش، فوصل إلى المنطقة التي يقطنها أثرياء المدينة وأعيانها وقصد قصرًا بعينه كان يعرفه ويحفظ خريطته عن ظهر قلب، ولم يتردد في أن يتسلل خلف أحد الحراس ويصرعه في لحظة قبل أن يعتلي السور ويهبط داخل القصر فيجوس في ممراته ويقترب من إحدى الغرف ويفتح الباب بكل هدوء ثم يتوجه نحو الفراش حيث ترقد غادة حسناء فيضع يده على فمها لئلا تصرخ، وعندما تنتبه الفتاة وتفتح عينيها في رعب يعاجلها بضربة تُفقدها الوعي ثم يحملها بين يديه ويمضي بها خارجًا، ثم يستولي على أحد الخيول، يعتليه ويغادر قصر الكوارشي ومعه الفتاة التي لم تكن سوى البندريّة ابنة الكوارشي وشقيقة همَّام التي اضطرم قلبه بحبها وكانت من أسباب ارتكابه لجريمة قتل المغنية إيزابيلّا على أمل أن يرضى عنه همَّام ويقبل بتزويجه إياها. وها هي الآن بين يديه والفرس ينهب الأرض نهبًا في الطريق إلى.. كهف العفريت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

أحلام المطجّن البصاص

شهد القرن الثالث عشر الميلادي استمرار الحملات التي استهدفت العالم الإسلامي من الشرق والغرب من جانب أعداء مختلفي المشارب، متعددي الأجناس، يجمعهم فقط الحقد على الدولة الإسلامية التي اتسعت وصارت دولًا عديدة يحارب بعضها بعضًا ويطحن قويها ضعيفها ويتحالف ملوكها مع الأعداء ضد الأشقاء. في الشام لم تضع موقعة حطين التي وقعت عام ١١٨٧ بقيادة «الناصر صلاح الدين» حدًّا للأطماع الصليبية وإن كانت دفعتها للخلف إلى حين. وفي بغداد يستولي التتار بسهولة على الأرض ويقتلون الخليفة العباسي ويعصفون بكل من يقف في طريقهم. وفي مصر كانت الأنواء تضرب الإقليم بعد نهاية ملوك بني أيوب، والتتار يدقون الأبواب بعنف ويطلبون الاستسلام بدون شرط. وفي مراكش تتصارع بقايا الدولة الموحدية مع الطامعين في وراثة المملكة الضعيفة ويقتتل الأشقاء وأبناء العمومة. وفي إفريقية (تونس) تقوم دولة بني حفص على أنقاض الموحدين. وفي الأندلس كان السقوط المروع لقرطبة ووقوعها في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة ثم بلنسية التي قاومت مقاومة الشرفاء ثم استسلمت لأقدارها بعد تخلي الأشقاء عنها وانحيازهم للملك خايمي الأول ملك أراجون، وإغلاق الأبواب والمعابر في وجه سكانها ومنعهم من الفرار من المذابح، ثم بعد ذلك التنمر والاستعداد للانقضاض على إشبيلية ومناوشة غرناطة طوال الوقت. والأمر الجدير بالذكر أن الضعف البادي للمسلمين في الأندلس قد أغرى الملك خايمي في ذروة فتوحاته بتجهيز حملة صليبية وأسطول بحري خرج متوجهًا إلى الشرق لإعادة الاستيلاء على بيت المقدس، لكن العواصف حطمت معظم سفنه، فعدل عن مشروعه وسارت بضع سفن بها قوة من القطلان والأراجونيين وفرسان سنتياجو ووصلت إلى ثغر حيفا بالشام وانضمت إلى من كان هناك من القوات الصليبية في محاربة المسلمين.

في قرمونة كان قصر السلطان البيكيكي يمور بالغضب بعد أن فشلت الشرطة في العثور على المطجّن البصاص الذي لم يكتفِ بالهروب والإفلات من شمروخ قائد سجن الأدغم وجنوده، وإنما اعتصم بكهف مخيف يخشى الأبالسة المرور إلى جواره، ثم أخذ يهبط على المدينة وحده ويعيث فيها تخريبًا أثناء الليل، يقتل ويسرق ويعود من حيث أتى دون أن ينجح أحد في التصدي له. والغالب أن نجاح المطجّن كان يعود إلى استماتته واستقتاله خوفًا من العودة للسجن وهو الأمر الذي أمده بدهاء النماردة وقوة الشياطين، والسبب الآخر هو تخصيص قوة الشرطة بأكملها لحراسة البيكيكي وتنكيلها بالناس من أجل تحقيق هذه الغاية وإهمالها الفظيع لدورها الطبيعي في حفظ أمن العباد وأرواحهم وممتلكاتهم، فكان الناس يدفعون الضرائب الظالمة التي فرضها عليهم الوزير بطرس كاساتا من أجل الإنفاق على العسكر وحماية فرد واحد فقط.

ثم تأتي الطامة الكبرى وتختفي البندريّة ابنة الكوارشي ويتم اختطافها من داخل القصر على يد رجل ملثم، وقد عجز حراس القصر الذين انتبهوا للأمر عن اللحاق

بالخاطف الأثيم. ولم يخالج الجندرمة أي شك أن الخاطف هو السجين الهارب المطجّن البصاص.

وصل المطجّن إلى كهف العفريت على مشارف الصباح، بعد أن ظل يعدو طوال الليل بين المسالك والدروب المتعرجة حتى يضلل من يحاول اقتفاء أثره، وعندما دخل في عمق الكهف كانت البندريّة قد بدأت تفيق من غيبوبتها، ورأت رجلًا يحملها بهدوء ويضعها على الأرض ثم يصنع لها مهدًا من الأغطية والوسائد ينقلها إليه، وقد كانت البندريّة من شدة الذهول عاجزة عن الفهم وغير قادرة على مجرد الصراخ. كانت تتأمل ما يحدث وكأنها تشاهد حدثًا يخص غيرها، ولم تكن تستطيع أن تترجم ما تراه ولا أن تعلل سبب الوجود في هذا المكان مع هذا الرجل الغريب قبيح الخلقة كريه الرائحة الذي يبدو وكأنه لم يستحم أبدًا. وكان الظلام المحيط بالمكان يُدهشها ولا يخيفها، وبذلت جهدًا عنيفًا في محاولة للفهم والتذكر. وبعد لحظات عادت إليها الذاكرة قاسية للغاية تحمل حقيقة ما حدث، وبرق في ذهنها ما كان بالتفصيل، واسترجعت لحظاتها الأخيرة في قصر أبيها بعد أن اقتحم حجرتها زائر غريب ووجّه إليها ضربة كانت آخر ما تذكره، عند هذا الحد انتابها رعب شديد وشعرت بالخوف يكاد يقتلها فأطلقت صرخة عالية في وجه المطجّن، وأخذت في الابتعاد عنه وهي ترتعش، في الوقت الذي وقف المطجّن مرتبكًا متلعثمًا يقول كلامًا غير مفهوم ويحاول أن يطمئنها ويؤكد لها أنه يحبها ولا يمكن أن يفكر في إيذائها، وفي الحقيقة لم يكن شكله يبعث على أي إحساس بالأمان، ولا كان المكان يسمح إلا بانطلاق الهواجس والإحساس بدنو الموت، فازداد صراخها وتردد صداه في جنبات الكهف مما زاد في رعبها وكانت عيناها قد بدأتا تعتادان الظلام في اللحظة التي مر فيها سرب من الخفافيش حف بوجهها طائرًا إلى خارج الكهف فسقطت مغشيًّا عليها من هول الصدمة.

خرج المطجّن البصاص وترك البندريّة بعد أن اطمأن لنومها وغطاها في حنان بالغ لا يتصور أحد وجوده عند كائن كهذا، ثم انطلق في طريقه إلى المدينة حتى بلغ موضعًا قريبًا من نهر تجاريتي حيث يقبع كنزه الغالي، فقام بربط الفرس وتسلل في هدوء فلمح اثنين من العسس على البعد يحرسان موضعًا من النهر، فسار بحذاء النهر من جهة الغابة وأبصر حراسة منيعة موزعة على الضفتين على أمل الظفر به إذا حاول أن يعود لاستخراج الكنز.. وفي الحقيقة أنهم لم يكونوا متأكدين من حكاية الكنز هذه، وبدأت الشكوك تساور أبا الحسن المراكبي صاحب الشرطة، لكنه لم يجد بدًّا من التعلق بهذا الأمل إلى نهايته. كر المطجّن عائدًا إلى فرسه بعد أن رأى كنزه الثمين محاطًا بالعسكر، وقد أزمع أن يعود إليه بعد أن يدب اليأس في نفوسهم ويبرحوا المكان. وبدأت ترد على خاطره أحلام وردية رأى فيها حياة جديدة تجمعه والجميلة التي صارت في قبضة يده، وتمنى أن تصفح عنه وتقبل بالعيش معه في بلاد بعيدة سيأخذها إليها برضاها أو عنوة بعد أن يستخرج الكنز ويصير من الأعيان مثل أبيها الكوارشي وأخيها همَّام.

في هذا الوقت كان همَّام في سجن الأدغم حين بلغه الخبر فنزل عليه نزول الصاعقة وأحس بأنه هو السبب فيما حدث، فلم يستطع أن يسامح نفسه.. ولِمَ لا؟ أليس هو

الذي قرّب إليه هذا الذئب المفترس وأدخله بيته، واستأجره للثأر من حبيبته الغادرة وجعله يطمع في مصاهرته؟ فلماذا يندهش حين ينقلب عليه الذئب وينشب مخالبه في لحمه؟ هاجت مشاعر همَّام فأجهش في البكاء وتمنى لو كان حرًّا طليقًا حتى يَجِدَّ في أثر المطجّن ويقتله بيديه.. ثم تذكر أنه لا يستطيع أن يفعل هذا فتدارك أمنيته المستحيلة وتمنى لو كان خارج السجن حتى يستأجر بماله مجرمًا عاتيًا آخر يستطيع أن يواجه المطجّن المتوحش القاسي عديم الضمير، ربيب أبي الحسن المراكبي قائد فرقة الجندرمة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

درب الذئاب

لم يكن السلطان البيكيكي فريدًا في التجائه إلى الأعداء ومظاهرته لهم على أهله وتقديم العون لهم في حملاتهم على بلاد المسلمين، ولم يكن وحده من يطلب منهم العون في صراعاته مع أشقائه ورغبته في إبقاء العرش في ذريته من بعده. كان مثله كثير من حكام الولايات الإسلامية الذين تباروا في إظهار الخضوع للأعداء من أجل الحفاظ على العروش، لكن كان للسلطان البيكيكي فضل التحليق إلى آفاق غير مسبوقة في هذا المضمار وضحت بشكل جلي عند حصار بلنسية، حين شارك بنفسه في هذا الحصار ورفض حتى أن يداوي الجرحى من أبناء المدينة المحاصرة حتى تشرد أهلها وصاروا لاجئين في المنافي. وقد وصف ابن الأبّار موقفه يومئذ بعد أن فقد كل شيء وأرغم على ترك وطنه في بيتين من الشعر بعث بهما إلى بعض أصحابه بعد مغادرته بلنسية، قال:

الحمد للّـه لا أهْلٌ وَلا وَلَدُ

وَلا قَرَارٌ ولا صَبرٌ ولا جَلَدُ

كانَ الزَّمـانُ لَنـَا سِلْمًا إلى أمَـدٍ

فَعَـادَ حَـرْبًا لَنـَا لمّا انْقَضَـى الأمَـدُ

ومن أمثلة حالة التفريط التي سرت بين ملوك ذلك الزمان ما كان من علاقات حميمة بين الخلافة الموحدية في الأندلس وفي مراكش وبين الكرسي الرسولي، وذلك في ذروة الحملات الصليبية على بيت المقدس، وفي ذروة تعضيد البابا للحرب على المسلمين في المشرق والمغرب. وقد بدأت هذه العلاقة منذ عصر الخليفة المأمون الموحدي، ذلك أن المأمون استنصر بفرناندو الثالث ملك قشتالة لكي يمده بقوة من المرتزقة القشتاليين، وقد اشترط فرناندو مقابل ذلك الحصول على عدد من الحصون الأندلسية نزل عنها المأمون فورًا، غير شروط أخرى منها أن يبني في مراكش كنيسة لجنوده، ومنها أنه إذا أسلم أحد الجنود الإسبان فلا يُقبل إسلامه بل يرد إلى إخوانه يقضون في أمره وفق ما يرون، ولكن إن تنصّر أحد المسلمين فليس لأحد عليه سبيل. هذا وقد قبل المأمون كل هذه الشروط واستقبل على أرضه قوات من المرتزقة كان لها اليد العليا في قصر الخلافة الموحدي.

أما السلطان البيكيكي فقد وجد نفسه في موقف لا يحسد عليه بعد أن تلقى رسالة عنيفة من حاكم إمارة الساحل البندقي يحذره فيها من التساهل أو التراخي في القبض على المطجّن البصاص، وشعر السلطان الذي وجد نفسه يتعرض لضغوط من عدة دوائر بالحيرة، وقد فكر كالعادة في الالتجاء لأعداء المسلمين، غير أن هؤلاء يبدو أنهم قد ضاقوا به ذرعًا، ولم يعد وجوده يقنعهم رغم الاستعداد للتفريط إلى آخر مدى، وذلك بسبب الكراهية والمقت الشديدين اللذين كان يحظى بهما السلطان بين الناس، وقد فكر الفرنجة بجدية في الاستيلاء على بلاده بدلًا من أن يتركوه يحكمها كوكيل عنهم، أو أن يمنحوا الحكم لصديق آخر لهم لا تكون حقيقته وولاؤه للأعداء قد اتضحا للناس بعد!

استدعى السلطان أركان حكمه حتى يروا ما هم صانعون إزاء ضغوط الأمير فارس المختوم بعد أن تعرضوا للإهانة من جانب المطجّن البصاص الذي عبث بالجندرمة واستهان بالعسس، فهرب من السجن وخطف البندريّة ابنة شهبندر التجار، ثم أخذ يقوم بغارات ليلية على المدينة كانت أخبارها تصل لأمير الساحل البندقي الذي اشتد حنقه وهدد بقطع المعونة التي كان يرسلها إلى السلطان ومنها كان هذا يقوم بدفع الجزية للإسبان.

كان الوزراء والمستشارون في بلاطه يتربص بعضهم ببعض ويكيد أحدهم للآخر. أشار عليه كبير المستشارين في البلاط، وهو يهودي يدعى «شارماخ الأطاطي» بضرورة إعادة المطجّن إلى السجن بأي ثمن.. قالها وهو ينظر بتهكم إلى أبي الحسن المراكبي الذي انكمش في مقعده وغمغم بكلمات غير مفهومة وهو ينظر بحقد إلى شارماخ الماكر. كان السلطان يعتمد كثيرًا على شارماخ الأطاطي ويفضله على من عداه من الأشرار الذين أحاط نفسه بهم لتفوقه عليهم في الأساليب الشيطانية وقدرته على إيجاد الحلول، وكان السلطان في الوقت نفسه يحتاج بشدة إلى أن يستعيد مهابته وسط الرعية وبين الممالك المجاورة وفي مواجهة المتربصين الذين يسعون لتقديم أنفسهم للفرنجة كوكلاء بديلين عن البيكيكي الذي يظنه الجميع قد أضحى عاجزًا وغير قادر على الفعل بعد أن بلغ من العمر عتيًا. وجّه السلطان إلى رئيس الجندرمة نظرات نارية وصاح به أن يتصرف وإلا قطع رأسه وعلقها على بوابة المدينة. هتف شارماخ طارحًا فكرة وجدها تفي بالمطلوب: «يا عظمة السلطان، سواء نجح أبو الحسن في القبض على المجرم أو فشل كالعادة فالحل أن نقدم للناس أي شخص على أنه هو المطجّن البصاص، ونعلن عليهم تفاصيل القبض عليه، ولا ننسى أن نشيد بجهود أبي الحسن المراكبي ورجاله التي كللت بالتوفيق!». وأضاف شارماخ: «وعلى الشيخ عجينة أن يدعو من فوق المنبر للسلطان أن يديمه الله على الأمة لأنه هو الذي يحفظ لها أمنها ومهابتها ويبعد عنها الأخطار بعظيم حكمته التي وسعت حتى فاضت على الممالك المجاورة...». وأكمل شارماخ: «وعلينا أن نضغط على القاضي ابن عقيل بكل السبل حتى ينهي القضية بأسرع وقت. أما فكرة الحصول على القاتل البديل فهي موكولة للسيد أبي الحسن المراكبي، وهي على أي حال ليست جديدة عليه فقد تمرس منذ زمن على تلفيق التهم للأبرياء وتقديمهم للمحاكمة مشفوعين بالأدلة الزائفة، وله في ذلك مدرسة وتلاميذ».

أعجبت أفكار شارماخ السلطان البيكيكي وشعر بالارتياح لوجود المستشار اليهودي الذي يفتيه في كل شيء ويقف إلى جانبه بكل إخلاص ويختار له وزراءه ومعاونيه ويبعد عنه كل من يلمس فيهم صدقًا أو حبًّا للبلاد، وإلى شارماخ الأطاطي تعود كل القسوة التي يوجهها السلطان نحو أهله!

في هذه الأثناء كان المطجّن قد انصرف بعيدًا عن النهر حيث الجند المتربصون واتجه صوب المدينة فسطا على بعض المحال وأحضر طعامًا وشرابًا ثم كرّ عائدًا من خلال المسالك الوعرة إلى كهف العفريت حيث ترك البندريّة. دخل المطجّن بخطى هادئة حتى لا يزعج محبوبته ودنا من فراشها فاكتشف لدهشته خلو الفراش.

بحث عنها يمنة ويسرة فلم يجد لها أثرًا بالكهف فجن جنونه وأخذ يصرخ صرخات مخيفة بينما انطلق يعدو خارج الكهف، فعثر على آثار أقدامها تتجه نحو المنحدر بجوار جدول الماء فأخذ في تتبع الأثر وهو لا يكُف عن إطلاق صيحات الغضب وكأنما أصابه مس من الجنون. كانت الآثار واضحة فمشى خلفها وخشي أن مسافة كبيرة تفصله عنها.. لا شك أنها استيقظت وشرعت في الهرب منذ ساعات، وفي طريقه في أثرها وجد المطجّن الشال الحرير الخاص بالبندريّة عالقًا بفرع شجرة فأدرك أنها قريبة وخفق قلبه وأخذ يسرع الخطى، وانتابه خوف حقيقي من أن يكون أصابها مكروه، حيث إنها بعد جدول الماء سلكت دربًا مهجورًا تسكنه الأفاعي وتبيت في جحوره الثعالب وتنتشر على أطرافه الذئاب المفترسة، لهذا فقد أطلق عليه درب الذئاب. ندم المطجّن أشد الندم على أنه تركها وحدها وأخذ يدور حول نفسه وهو يهذي، وفجأة جمد في مكانه بعد أن أبصر خيطًا من الدم تحت قدميه، فمضى خلفه ودقات قلبه المتسارعة تكاد تُسمع في الفضاء الموحش المحيط بدرب الذئاب المفترسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

وا بيكيكيّاه.. وا إسلاماه

كانت الأندلس تعتبر في العصر الموحدي مثلما كانت في العهد المرابطي، قطرًا من أقطار الدولة الموحدية الكبرى التي تحكم من مراكش. وكانت تنقسم إلى عدة ولايات هي ولاية الغرب وباجة ويابرة، وبطليوس وماردة وأحوازهما، وإشبيلية وكانت أعظمها رقعة وتشتمل على قواعد شريش وشذونة وأركش وقرمونة وإستجة. وفي الوسط كانت هناك ولاية قرطبة وأحوازها، وجيّان وأحوازها وتشتمل على بياسة وأبدة. وفي الجنوب كانت غرناطة وتشتمل على وادي آش وبسطة والمنكب، وألمرية وأحوازها، ومالقة وأحوازها. وفي الشرق كانت هناك بلنسية وتشتمل على قواعد قسطلونة والجزيرة وشاطبة ودانية والجزائر الشرقية. وهناك مرسية وتشتمل على لقنت وأوريولة ولورقة.

فلما وقعت نكبة العقاب الكبرى وسحقت الجيوش الموحدية، وتعذر على الخلافة الموحدية أن تبعث حشودها إلى الأندلس انهارت الجبهة الدفاعية الأندلسية، ونهضت الممالك الإسبانية لتجني ثمار النصر وتلتهم من أشلاء الأندلس ما استطاعت، وشُغل الولاة الموحدون بما نشب حول كرسي الخلافة من نزاع بدأ بالمغرب وتردد صداه بالأندلس التي تُركت لمصيرها بعد أن تخلت عنها الخلافة الموحدية وأخذت تحاول بقواها المضعضعة أن تقف في وجه السيل المتدفق عليها من جيوش الفتح الإسبانية، فكان أن فقدت الأندلس سائر قواعدها الكبرى في أقل من ربع قرن!

كان الشعور بالهوان على أشده بين الناس، وكان الإسبان يخطرون في بعض المدن الأندلسية في حماية فرسانهم بمقتضى المعاهدات المهينة التي وقعها الولاة مع الإسبان لضمان عروشهم. وقد عبّر الشعراء عن المأساة الكبرى أبلغ تعبير. كتب الشاعر صالح بن شريف الرندي نونيته الشهيرة التي ما زلنا نرددها إلى اليوم والتي تقول:

لِكُلِّ شَيءٍ إِذا ما تَمّ نُقصانُ

لا يُغَرّ بِطيبِ العَيشِ إِنسانُ

هِيَ الأُمُورُ كَما شاهَدتُها دُوَلٌ

مَن سَرَّه زَمَن ساءَتهُ أَزمانُ

وَهَذِهِ الدارُ لا تُبقي عَلى أَحَدٍ

وَلا يَدُومُ عَلى حالٍ لَها شانُ

أَينَ المُلوكُ ذَوي التيجانِ مِن يَمَنٍ

وَأَينَ مِنهُم أَكاليلٌ وَتيجَانُ

فاسأل بَلَنسِيةً ما شَأنُ مرسِيَةٍ

وَأينَ شاطِبة أم أينَ جيَّان

وَأَين قُرطُبـة دارُ العُلُـوم فَكَم

مِن عالِمٍ قَد سَمـا فِيها لَهُ شانُ

قَوَاعد كُنَّ أَركانَ البِلادِ فَما

عَسى البَقاءُ إِذا لَم تَبقَ أَركانُ

وحدث أن كانت امرأة تسير في السوق عندما اعترضها نذلًا روميًّا، حاول هتك عرضها أمام الناس الذين لم يحرك أحد منهم ساكنًا، فما كان من المرأة سوى أن استغاثت وملأ صراخها الفضاء مستجيرة بأهل المروءة أن ينجدوها، ولعلها في موقفها هذا تمثلت صورة المرأة العربية التي استجارت بالخليفة المعتصم وأطلقت صرختها الشهيرة: «وا معتصماه»، والتي أخبرنا ابن الأثير أنه على أثرها ردد المعتصم قولته التاريخية: «لبيك» ثم نهض من فوره وصاح في قصره: «النفير النفير»، وأشهد القضاة والشهود على ما وقف من الضياع، وغزا أنقرة ثم عمورية وهدمها على رأس من فيها عام ٨٣٨ م. ظنت المرأة أنه يمكنها أن تستغيث بالسلطان البيكيكي ما دام الناس قد تبلدوا ورفضوا مد يد المساعدة لها، واعتقدت أنه يمكنها أن تطلب منه الغوث فصاحت: «وا بيكيكيّاه، وا إسلاماه.. وا بيكيكيّاه، وا إسلاماه». سمع الجنود صراخ المرأة في الشارع فاندفعوا إليها، وقاموا وسط دهشة الناس بالقبض عليها هي وضربوها ضربًا مبرحًا، ولم يتعرضوا للرومي النذل وتركوه يمضي لحاله! ولم يكن هذا الأمر مستغربًا على زمن السلطان البيكيكي الذي جعل رعايا الدول التي يخشاها أو التي يتقاضى منها المساعدات المالية فوق المساءلة وفوق الحساب، ولم يكن الروم وحدهم من يتمتعون بهذه الأفضلية، لكن الأمر وصل إلى رعايا دولة آل مسعود، تلك المملكة التافهة الواقعة على خليج البيسان، والتي كان يحكمها مجموعة من قطاع الطرق واللصوص. وسريعًا وصل خبر المرأة إلى السلطان البيكيكي الذي كان معتل المزاج بعد هروب المطجّن البصاص وعجز شرطة الولاية عن الإمساك به. عرف السلطان ما كان من أمر المرأة واستغاثتها به، فجمع أركان حكمه يطلب منهم المشورة، خاصة أن الخبر قد شاع في المدينة والناس صارت تنتظر ما يفعله السلطان لنصرة المرأة التي تعرضت للإهانة من الرومي ومن بصّاصي السلطان. بالغ بعض الأهالي في أمانيهم فتصوروا أن البيكيكي قد يجهز جيشًا ويخرج للقاء قشتالة ولا يعود حتى يهدم طليطلة حاضرة ملكهم فوق رءوس ساكنيها ولا يُبقي حجرًا على حجر في المدينة! اجتمع السلطان بوزرائه ومستشاريه، ثم خرج على الناس خطيبًا وكانوا في انتظاره. قال السلطان إن التحقيقات أثبتت كذب المرأة وافتراءها، وأنها اعتادت السلوك المعوج ورمي الناس بالتهم، ونفى عن الرومي أن يكون قد تعرض لها، ثم أضاف أنها قامت بالتعدي على رجال العسس وضربت نفرًا منهم، لهذا فقد أمر بجلدها مائة جلدة ثم حلق شعرها وتجريسها بإركابها حمارًا بالمقلوب والطواف بها في طرقات المدينة ودروبها لتكون عبرة لمن يستغيث بالبيكيكي دون حق!

في الوقت الذي كانت المرأة تهان وتدفع ثمن بلادة السلطان وهوانه على الآخرين كان المطجّن البصاص يسعى في درب الذئاب كما المجنون بحثًا عن محبوبته التي هربت من كهف العفريت وتسللت خارجة تضرب في الفيافي على غير هدى. أخذ المطجّن البصاص في تتبع خيط الدماء التي أبصرها على الأرض حتى وصل إلى صخرة كبيرة وجد البندريّة تجلس إلى جوارها متقطعة الأنفاس خائرة القوى، فلما رأته بكت بحرقة ثم استسلمت له يحملها بين ذراعيه القويتين ويمضي بها عائدًا إلى الكهف.

قدم المطجّن إليها الطعام والشراب فرفضت وهي تنأى عنه وتجلس القرفصاء مرتجفة من شدة الخوف وتنظر إليه لا تدري ماذا ينوي أن يفعل بها. حاول أن يطمئنها وقال إنه ما فعل فعلته التي وضعت حياته في مهب الريح إلا لأجل الفوز بها، وحكى لها عن اتفاقه مع أخيها همَّام على الزواج بها فور أن يقضي مهمته ويقتل المغنية إيزابيلّا، لكن الحظ السيئ جعله يسقط في يد الشرطة ويقف أمام المحكمة مع همَّام، ثم اتسعت أساريره وهو يذكر لها أن القدر ساعده على الهرب لحكمة: هي أن يتم تنفيذ الاتفاق وأن يتزوج من أميرة أحلامه وأحلام الشباب في الولاية كلها. رفضت البندريّة قصته حول اتفاقه مع همَّام بشأنها وقالت إن أخاها لا يمكن أن يفعل هذا بها، ولما كانت تعلم عن المطجّن طمعه وحبه للمال فإنها لجأت إلى محاولة إغرائه ووعدته بأنه إذا أطلق سراحها وتركها تعود لأهلها فإنها ستدفع له ما يجعله غنيًّا بقية حياته. ضحك المطجّن لسذاجتها وقال لها إنه لا يحتاج إلى مالها لأنه يملك كنزًا مخبوءًا لا يفصله عنه سوى بضعة أيام، وأن الدنيا قد ضحكت له بعد عبوس. قالت البندريّة تستحلفه إن أباها سيموت كمدًا إذا طالت غيبتها أكثر من ذلك وطلبت منه أن يرحمها ويرحم شيخًا كبيرًا هو بمثابة والده، ويكفيه ما فعل بأخيها بعد أن اعترف عليه وهدم حياته. لم تُجدِ توسلاتها، فطلبت منه في محاولة أخيرة أن يطلبها من أبيها كما يليق بمن كانت مثلها، ووعدته بأنها ستوافق وسوف تتزوجه. لمعت الفكرة برأس المطجّن ومنحته سعادة للحظات، لكنه عاد للواقع سريعًا وقال لها: «لا تحاولي خداعي، لقد فزت بك واستحققتك عن جدارة وفعلت كل المطلوب مني، وبقي عليكم الوفاء».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

بين قصر الكوارشي وسجن الأدغم

بقدر ما شعر الكوارشي الكبير بالسعادة بعد هروب المطجّن البصاص، لدرجة أنه صار ينثر الأموال في الطرقات على السابلة، لعلمه أن غيابه يفتح الباب لبراءة ولده همَّام من تهمة المشاركة في قتل المغنية إيزابيلّا، بقدر ما تحطمت سعادته القصيرة بعد أن قام المجرم الأثيم باختطاف ابنته والفرار بها إلى حيث لا يعلم أحد. أرسل الكوارشي مراسيل كثيرة إلى السلطان البيكيكي يرجوه العمل على استعادة هيبة السلطنة والقبض على البصاص لتعود إليه ابنته وقرة عينه. ومن ناحية أخرى شملت جهوده استدعاء السحلاوي قاطع الطريق إلى القصر وبصحبته الشيخ عجينة الذي لم يكن يترك مصيبة تحل بالبلاد وبالعباد دون أن يفيد منها ويحقق من ورائها نفعًا! ويروي السحلاوي عن هذه الزيارة أن الكوارشي كان منهارًا تمامًا؛ لأن المصائب قد تتالت عليه وهو على فراش المرض، وبدا أن الحياة التي ابتسمت له طويلًا قد أولته ظهرها، ففجع في آخر عمره بجريمة ابنه الوحيد الذي كان يعده سنده وذخره وحامل راية التجارة من بعده، ثم تأتي الطامة الكبرى وتختفي البندريّة ويطول غيابها. في هذا اللقاء كان الرجل الكبير مكسورًا من شدة الحزن، وقد قام على غير المعهود منه بالتوسل إلى السحلاوي واستعطافه لدرجة وضع ثروته كلها تحت تصرف قاطع الطريق. قال الكوارشي: «سأمنحك كل ما أملك من أراضي وجواهر وأموال ومدائن عامرة. فقط أريد رأس المطجّن البصاص، وأريد ابنتي سالمة». والحقيقة أن السحلاوي قد أظهر التأثر لنكبة الرجل الذي يشبه مصيره مصير الأندلس ذاتها، تلك التي تضعضعت أركانها وتكاثرت عليها النوائب من كل جانب بعد أن كانت منارة للبشرية. في هذه الجلسة لم ينس الشيخ عجينة أن يطلب الغداء والتحلية وشراب الينسون ولا أن يطلب عند الرحيل صندوقًا من الجواهر لزوم المصروفات النثرية! وهو الأمر الذي أثار حفيظة السحلاوي الذي كان برغم إجرامه التاريخي يملك شيئًا من الحس الإنساني وبعض القدرة على إخفاء مطامعه، على العكس من الشيخ الخليع الذي كان فاجرًا في التعبير عن أطماعه والذي لم تشغله أبدًا سوى ملذاته وشهواته. وفي جلستهما وحدهما بعد أن غادرا قصر الكوارشي ووصلا إلى قصر الشيخ عجينة الواطي وجلسا يحتسيان الشراب بينما الراقصات يتحلقن حولهما، والغلمان يشغلون ردهة القصر، أعاد السحلاوي على مسامع الرجل امتعاضه من النذالة المكشوفة التي أبداها، في الوقت الذي كان يتعين عليه أن يخفف من لوعة الرجل المكلوم، خاصة أن أيادي الكوارشي البيضاء تبصم على حوائط القصر الذي بناه له لقاء خدمات سابقة. قال عجينة: «ألا تعلم يا رقيق الفؤاد أن القدر الأكبر من أموال الكوارشي قد جمعها من خلال التصاقه بالسلطان البيكيكي ونالها دون جهد حقيقي، وما هي في حقيقتها إلا نفحات آثمة ممن لا يملك إلى من لا يستحق؟ فلماذا بحق الشيطان لا نأخذ نصيبنا منها؟ ثم إن الكوارشي قد أخذ بكل درهم دفعه لي طوال السنوات السابقة فتاوى من النوع الفاخر سهلت له أعماله ونصرته على منافسيه، وأنا لست مدينًا له، ثم إن رجلًا مثلك يا سحلاوي ورجلًا مثلي لا يؤمنان بالله أو بالآخرة والبعث إلى آخر هذا الكلام العجيب.. جنّتهما الوحيدة هي على الأرض وفي هذه الحياة، فلماذا نرق للكوارشي أو لغير

الكوارشي؟». وأضاف: «لقد فهمت من كلامك العطوف أنك لا تريد نصيبك في صندوق الجواهر.. إذن سآخذه كله، وخذ أنت الثواب!». قال السحلاوي في هلع: «يا لك من ملعون.. ألا يستطيع المرء أن يمازحك أبدًا، إني أريد نصيبي طبعًا وإلا قطعت رقبتك». قال عجينة ضاحكًا: «كنت أعلم أنك لن تقطع شوطًا كبيرًا على طريق الشرف، وأن همتك ستقصر بك عن بلوغ آخره.. أنا الآن مطمئن عليك». قاطعه السحلاوي: «آه لو علم الناس أن شيخ الجامع الكبير لا يؤمن بالله، إذن لقطعوا لحمك وأطعموه للكلاب». قال عجبنة: «هلّا خرست قليلًا حتى ننظر في خطة للعمل.. اسمع يا سحلاوي.. من الغد أنت تطلق رجالك يفعلون ما عجزت عنه جندرمة البيكيكي، تلك التي أصاب رجالها الوهن، بعضهم من فرط التخمة والمال السائب وبعضهم من العمل المضني والجوع الكافر، عليك أن تجعلهم يمسحون التلال المحيطة بالمدينة ويجوبون القفار على الجهة الأخرى من النهر، حتى كهف العفريت اجعلهم يذهبون إليه ويدخلونه بحثًا عن الوغد، واطلب منهم ألا يعودوا إلا بصحبة رأس المطجّن البصاص، أما أنا فسوف أعلن غدًا من فوق المنبر عن مكافأة ضخمة يرصدها الكوارشي لمن يأتيه بالمطجّن حيًّا أو ميتًا، أو لمن يساعد في عودة البندريّة».

كان همَّام الكوارشي في تلك الأيام العصيبة قد استسلم لليأس من طول مكوثه في السجن وكذلك من افتقاده البندريّة التي كانت تزوره كل صباح تحمل إليه الطعام والأخبار، فصار يأكل كثيرًا، وأصبح يلتهم معظم ما يحويه السماط اليومي الذي يُمد داخل غرفته الفاخرة آتيًا من قصر أبيه، وأغرق نفسه بالملذات؛ فقام باستدعاء تشكيلة من جواريه الروميات ليُدخلن على نفسه السرور، وكلف حراس السجن بأن يحضروا له الخلطات القوية التي يقوم بتخليقها «أبو حصيرة» العطار اليهودي، فصاروا يجلبون إليه يوميًّا قدرًا من القلقشند وبعض الحبشتآن المطحون فضلًا عن النخشبرت الجبلي، فكان يسفّ منه حتى يغيب عن الوعي فيحملونه إلى فراشه ويتركونه حتى الصباح.

وفي سجن الأدغم نفسه، الذي حظي فيه همَّام الكوارشي بإقامة ملوكي، كان يقبع في زنزانة رطبة شديدة القذارة الحسين الذي زامل المطجّن وشاركه الغرفة قبل أن يخرج ذات ليلة مع رجال شمروخ ولا يعود مرة أخرى. كان الحسين من خلال الشق الذي أحدثوه في الجدار يلتقي كل يوم بالشيخ شهاب ويواصلان الحفر دون كلل، يحدوهما الرجاء أن يتمكنا ذات يوم منٍ أن يبصرا نور الشمس. وقد خففت الصحبة عليهما وعثاء الأيام العسيرة ووجد كلٌ منهما في صاحبه أنيسًا يركن إليه، وكان الشيخ شهاب قد فقد ولده الوحيد في معركة العقاب فاعتبر الحسين ابنًا له، وقد عقد كلاهما العزم إذا ما كتبت لهما النجاة واستطاعا الفرار من سجن الأدغم أن يعبرا البحر إلى مراكش ومنها إلى مصر بعيدًا عن السلطان البيكيكي ورجاله المجرمين، وبعيدًا عن بقية ولاة الأندلس الذين فقدوا النخوة وعملوا في خدمة الأعداء. وكان الشيخ شهاب يحسن الظن بالمماليك الذين استولوا على حكم مصر وكانوا برغم جورهم محاربين أشداء أصحاب حمية وغيرة على الديار، فقاموا للصليبيين يصدون غاراتهم ويردون حملاتهم المحمومة التي لا تنقطع، وكان يأمل

في أن يطلعهم على حقيقة الأمر في الأندلس ويطلب منهم العون في إنقاذ دولة المسلمين في أوربا، بعد أن منيت بالفشل الجهود التي بذلها بنو حفص الذين حكموا إفريقية (تونس) في إنجاد الأندلس، فضلًا عن إخفاق الموحدين في مراكش في عمل أي شيء بعد أن صار الجنود القشتاليون أقرب إليهم من إخوانهم وبني جلدتهم المسلمين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

مخاوف عز الدين أنكش

بعد سقوط بلنسية واصل الأراجونيون زحفهم فاستولوا في زمن قصير على سائر القواعد القريبة منها وهي جزيرة شقر ودانية وشاطبة والبيضاء ولقنت، ولم يبق بيد المسلمين من قواعد الشرق سوى مرسية. أما القشتاليون فكانوا يستكملون قضم بلاد المسلمين في الأندلس من جهة الوسط، وبعد أن سقطت في أيديهم قرطبة كان أهم هدف لهم في تلك المنطقة هو الاستيلاء على مدينة جيّان التي كان ابن الأحمر قد تحصن بها واتخذها مقرًّا لرئاسته. وكانت جيّان مدينة عظيمة، حسنة التخطيط والبناء، ذات صروح وآثار جميلة، وكانت تتمتع بمناعة فائقة بأسوارها العالية وقلعتها الحصينة. ضرب الملك فرناندو الثالث حصاره حول المدينة واستمر الحصار شهرًا وجيّان تقاتل بضراوة وأهلها يعانون الجوع ونقص المؤن. وعندما أدرك ابن الأحمر صعوبة الموقف وصل لتفاهم مع القشتاليين باع به المدينة وقام بتسليمها للإسبان واعترف بطاعته للملك فرناندو ووافق على أداء الجزية وعلى أن يتعاون مع قشتالة في سائر حروبها ضد المسلمين! وكان أن دخل القشتاليون مدينة جيّان العظيمة وحوّلوا مسجدها الجامع في الحال إلى كنيسة وأقبل عليها فرناندو في موكب ضخم بعد أن غادرها أهلها وتفرقوا في قواعد الأندلس الجنوبية. ولما كانت جيّان من مراكز العلوم والآداب بالأندلس فقد انتسب إليها عدد كبير من العلماء والأدباء منهم الفقيه «أبو ذر مصعب الخشني» الذي أنشد بعد الخروج من جيّان يقول:

أجيَّان أَنتِ المَاءُ قَدْ حِيلَ دُونـه

وإنِّي لظَمآن إليكِ وصادي

ذكرتك إذ هبَّت شـمالٌ وإذ بـَدا

عَيني من تلك المَعـالمِ بـَادي

متى مـا أرد سيرًا إليك تـردني

مَخافة آسادٍ هُناك عَوادي

جلس عز الدين أنكش في حديقة قصره تجاوره زوجته ريحانة ابنة السلطان وقد بدا مهمومًا بسوء الأحوال في البلاد، وأسرّ إلى ريحانة برغبته في ترك البلاد والرحيل إلى مكان أكثر أمنًا يستطيعون فيه أن يناموا مطمئنين. كان أنكش قد بدأت تداخله المخاوف لأسباب عديدة منها تدهور صحة السلطان، ومنها الثورة التي تجمعت نذرها في الأفق، وكان يعرف أن كل بيت في المدينة له عنده ثأر، وأن قصره وزوجته وممتلكاته ستكون من الأهداف الأولى للثوار بعد كل ما ارتكبه من جرائم وما قام به من سلب ونهب. لقد حظي أنكش بحماية السلطان وعطفه وحقق ثروته العظيمة من خلال مصاهرته، لكن شيئًا لم يعد مضمونًا في ظل ضعف السلطنة، وسبب آخر أحجم عز الدين عن ذكره لريحانة ابنة السلطان وهو أن أباها لا يتورع عن الغدر بأقرب حلفائه، ولهم في همَّام الكوارشي أسوة. حقيقة كان الخلاص من

همَّام أمرًا طيبًا، لكن من يعلم.. قد تدور الدائرة ويضطر البيكيكي إلى التضحية به أيضًا إرضاء لبعض سادته وحلفائه! وكان عز الدين أيضًا يحمل في داخله خوفًا شديدًا من المطجّن البصاص ويعرف أنه أصيب بالسعار وصارت رائحة الدم تنعشه وقد لا يتوقف تهديده على اختطاف البندريّة فقط، بل قد يدفعه جنونه لمحاولة الحصول على بنت السلطان أيضًا. أدركت ريحانة ما يجول بخاطره فطمأنته بأن والدها لا يمكن أن يتخلى عنهما، وأن قوة من الفرسان الأشداء تحرس القصر ليل نهار ولا يجب أن ينسى أن أخاها حسّان صديق طفولته سيكون هو السلطان القادم، فمِمَ يخاف إذن؟ أجابها أنكش بأن قصر الكوارشي لم يكن أقل منعة عندما اقتحمه المطجّن وصرع كل من واجهه من الفرسان ثم حمل صديقتها البندريّة ورحل، وأضاف أنكش بأنه يعلم قدر محبة حسّان له، غير أن ولاية حسّان في ظل الوضع المتقلب للبلاد صارت أمرًا غير مضمون، وقد يهرب هو أيضًا إذا ادلهم الخطر وزاد غضب العباد. كان أنكش يمتلك ضياعًا وقصورًا موزعة على عدة مدن قشتالية، وكان مثل السلطان البيكيكي لا يشعر بالأمان إلا في صحبة أعداء المسلمين، لهذا كان لا ينفك يفكر في الرحيل والاستقرار بعيدًا عن ولاية يكرهه كل أهلها، ولم تكن حراسة الشرطة تحمل له الإحساس بالأمان.. بالعكس كانت تحمل له مخاوف وتلقي في قلبه وساوس من أن تأتي الضربة منهم، وهم في مجموعهم لا يختلفون عن المطجّن من حيث القوة والغدر.

كانت الأيام تمر بالمطجّن البصاص طويلة في الكهف الذي آوى إليه، وكانت البندريّة قد توصلت معه إلى اتفاق يقضي بألا يمسها بسوء وألا يحاول أن ينالها عنوة مقابل موافقتها على الزواج منه والرحيل معه إلى حيث يشاء بعدما يستخرج الكنز. كانت المسكينة قد لجأت للحيلة وشراء الوقت في محاولة لاتقاء أذاه حتى تستطيع الهرب أو يتمكن الجند من الإمساك به، ولم يكن من السهل على المطجّن القبول بهذا الاتفاق لولا أن هددته بأن تقتل نفسها ولا ينالها إلا جثة، فضلًا عن أن هيامه وتعلقه بها كانا سببًا في إذعانه عسى أن يلين قلبها فتتزوجه وتمنحه نفسها راضية. ولم يكن يمضي يوم دون أن يهبط المطجّن في الليل إلى شاطئ النهر بعد أن يُحكم وثاق أسيرته خشية هروبها مرة أخرى. ولم تكن الظروف قد أصبحت مناسبة للغوص في قاع النهر واستخراج الكنز، وإن كانت الحراسة قد خفّت إلى حد كبير على طول شاطئي النهر وبدأت أعداد الجند تتناقص يومًا بعد يوم، وقد وصلت إلى مسامعه، وهو يسترق السمع ذات ليلة مختبئًا عند النهر، أنباء تناقلها الجنود عن أن أبا الحسن المراكبي قد أخبر السلطان البيكيكي بأن المطجّن قد غادر الولاية وعبر إلى مراكش، وقد أسعدته هذه الأنباء وأشعرته بقرب بلوغ المنى. لكن ما أصابه بالقلق هو المكافأة التي أعلن عنها الشيخ عجينة من فوق المنبر لمن يساعد في القبض على المطجّن أو إحضار رأسه، تلك المكافأة التي رصدها الكوارشي في سعيه لاستعادة ابنته. ألهبت قيمة المكافأة الكبيرة خيال الناس وتمنى كل واحد منهم أن يكون سعيد الحظ الذي يحظى بها، خاصة أن سبل الرزق قد ضاقت والبطالة استحكمت وأصبح القوت شحيحًا.. لكن خطر مواجهة البصاص القاتل كان يردع تلك الأخيلة ويردها إلى الواقع.

إلى أن كانت ليلة هبط فيها القاتل وأخذ يجوس متسللًا على الشاطئ فلم يبصر أحدًا من العسس للمرة الأولى منذ زمن طويل، فأدرك أن اليأس قد نال منهم وأن أوان استخراج الكنز قد دنا، فأخذ يستعد سريعًا للعمل، ووصل إلى أطراف المدينة وتحيَّن الفرصة فاقترب من جواد مربوط غاب عنه صاحبه، فحل رباطه واستولى عليه وعاد به مسرعًا ثم قام بربطه إلى فرسه وانطلق يعدو بالفرسين إلى جهة النهر وهو يُمني النفس بأن يقوم بتحميل الصندوق الكبير على ظهر أحدهما وامتطاء الآخر ليعود للبندريّة ومعه مهرها. ربط المطجّن الجوادين وبدأ يخلع ملابسه استعدادًا للغوص عندما سمع حوافر خيل تضرب الأرض وتتجه بأصواتها نحوه فجمد في مكانه وقد ألجمته المفاجأة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

ليلة القبض على المطجّن

كان للسلطان البيكيكي دور أساسي في كل المصائب التي حاقت بالمسلمين في الأندلس. فإلى جوار جهله وخوار همته، كان يستمتع بالخيانة ويراها من آيات العبقرية، وكان يطيب له أن يجمع وزراءه ويقص عليهم في سعادة وفخر جانبًا من الدسائس والمكائد والوشايات التي ارتبطت باسمه، ولهذا لم يترك معركة تدور ضد المسلمين سواء من جانب القشتاليين أو من جانب الأراجونيين إلا وكان له فيها نصيب وإسهام غير منكور؛ فعند سقوط قرطبة كانت قوة من فرسانه تحارب إلى جوار الملك فرناندو، وعند اجتياح بلنسية كان يقدم للأراجونيين المؤن والسلاح ويمدهم بالمعلومات عن مواقع الحصون ومدى منعتها وجوانب الضعف والقوة لدى المسلمين، وعندما حاصر القشتاليون مدينة جيّان كانت قواته تسير جنبًا إلى جنب مع فرسان سنتياجو الإسبان. وقد نجح على مدى سنوات حكمه الطويلة في إفساد العباد وتخريب ضمائرهم حتى جعل بعضهم يلجأ للعمل في خدمة الأعداء أسوة بسلطانهم الخائر. وقد طاب للسلطان البيكيكي دائمًا أن يقرب إليه الأسافل والجهلاء وذوي التاريخ الأسود، بينما كان يحمل نفورًا فطريًّا من الأذكياء والموهوبين. وعلى قدر ما كانت بلاده تعج بالأدباء والشعراء لم يضبطه أحد يومًا يردد قصيدة أو يطرب لسماع أغنية، وكان ينتقي شعراء البلاط من العاطلين عن الموهبة بسبب عجزه عن تقييم الغث من السمين. وقد تحدّث عنه الشيخ عجينة لخاصته فأخبرهم بأن الرجل يصلي وراءه في أعياد المسلمين من دون وضوء ومن دون أن يكون حافظًا لأي قدر من القرآن ولو من قصار السور.

بعد سقوط جيّان أصبحت إشبيلية هي الحاضرة الكبرى التي عليها الدور، وقد أدرك العباد أنه ليس لغُمتهم من دون الله كاشفة، فأكثروا من الصلاة والعبادة وجعلوا زيارة الأضرحة طقسًا ثابتًا ودعوا الله أن يخلصهم من السلطان وأعوانه، وسرت بينهم همهمات من فرط اليأس ترحب بقدوم الفرنجة بل وتتعجله.

على ضفة نهر تجاريتي كان المطجّن البصاص يستعد للغوص من أجل استخراج الكنز عندما تناهى إلى سمعه صوت حوافر خيل تضرب الأرض. انتبهت حواسه فأسرع بالاختباء بين أعواد الزرع، وما هي إلا لحظات حتى أقبل اثنان من الفرسان ووقفا قبالته على حافة النهر دون أن يبصراه، لكن رؤية الجوادين المربوطين إلى شجرة أثارت دهشتهما، وعندما تبادلا الحديث فهم المطجّن على الفور أنهما من أعوان السحلاوي الذي كان يقوم بتسيير دوريات من رجاله تمسح الوادي للقبض عليه، على العكس من شرطة الولاية التي أصابها الوهن واليأس وروّجت لفكرة فراره ووصوله إلى مراكش. شعر المطجّن بالخطر يهدد مشروعه وخشي أنّ وجود الفرسين قد يدعو إلى الظن بأن هذا هو مكان الكنز فيأتي مزيد من الفرسان إلى هذه البقعة ليكونوا في انتظاره، وقرر التصرف على الفور فاندفع كالعاصفة نحو الفارسين وغرس سيفه في ظهر أحدهما فأسقطه من فوق جواده مضرجًا في دمه، فلما انتبه الفارس الآخر هجم على المطجّن بسيفه لكن هذا الأخير تفادى الضربة وجذبه إلى الأرض ودارت بين الرجلين معركة عظيمة أصيب فيها المطجّن بجرح

في ذراعه، ولما تكسّر سيفاهما من ضراوة النزال استكملا الصراع بالأيدي والتحما ببعضهما في جولة وحشية تهون إلى جوارها معارك الضواري في الغابة، وكان الرجل الآخر لا يقل عن المطجّن شراسة وقوة، وعلا صوتهما في الفضاء فكأنه زئير الليوث، ثم تدحرجا إلى حافة النهر وتبادلا الضرب العنيف، ثم سقطا في الماء دون أن تلين عزيمة أي منهما، واستمرت المعركة في قلب الماء زهاء ساعة بين وحشين آدميين، لكن المطجّن كان أكثر احتمالًا فحسم الأمر في النهاية وتمكن من لي عنق الرجل فكسر رقبته وترك جثته تغوص لأسفل ثم سبح نحو الشط القريب ودخل بين الزرع في الوقت الذي انطلق الجوادان اللذان حملا الرجلين اللذين صرعهما المطجّن البصاص وغابا في البرية. سقط المطجّن على الأرض مقطوع الأنفاس ثم تبين أن ذراعه تنزف فقام بربطها، وخارت قواه ثم راح في غيبوبة طويلة.

عندما أفاق نظر حوله فوجد جثة الرجل الذي صرعه طافية على النهر وجثة الآخر تنتهبها النسور إلى جواره، فخشي من افتضاح أمره وأسرع بالعمل على الفور فقام باحتضان حجر ضخم ثم ملأ رئتيه بالهواء وأسرع فقفز إلى النهر. هوى به الحجر إلى الأسفل سريعًا فلما لامس القاع ترك الحجر وأبصر كنزه الثمين قابعًا في موضعه، فعمل على تحريره من عقاله وسحب الصندوق من بين الصخور ثم أخذ يدفعه لأعلى ويصعد معه، هكذا حتى طفا ومعه صندوقه على صفحة النهر ثم رسا به على الشط وقام بإخراجه.

ما كاد المطجّن يخرج من النهر حتى أبصر أمامه رهطًا من الفرسان في انتظاره. مادت به الأرض ولم يدر ماذا يفعل، في الوقت الذي أسرع الرجال بالالتفاف حوله والإحاطة به من كل جانب. كانت هذه قوة من رجال السحلاوي الذين افتقدوا زميليهما فخرجوا يقتفون أثرهما ثم عثروا على آثار الموقعة وجثة صاحبهم وقد نهشتها الطيور، وأبصروا الجوادين المربوطين والملابس المتروكة على الشط فعرفوا أن صيدًا ثمينًا سيكون من نصيبهم، وها هو المطجّن البصاص أمامهم وبين أيديهم. اقترب الرجال من المطجّن وقبل أن تلمسه أياديهم كان قد نكص على عقبيه وألقى بنفسه في النهر تاركًا كنزه الثمين وأخذ يسبح ووراؤه فرقة من القتلة المحترفين يطاردونه في الماء، كانت عاصفة من المشاعر تجتاح المطجّن وهو يعطي ظهره للكنز الذي بنى كل آماله عليه، وفكر في البندريّة التي ضاعت منه وفي الموت الذي ينتظره، ثم كلّت ذراعاه من التعب وأدرك أنه هالك لا محالة فاستسلم لمصيره، فحملوه إلى الشط وأحكموا وثاقه، وكادت تصيبهم لوثة عندما فتحوا صندوقه وأبصروا الجواهر واللآلئ، فرفعوا الصندوق على ظهر جواد ومضوا ومعهم قنصهم الثمين في رحلة العودة إلى زعيمهم السحلاوي القابع في قلعة الشمقمق.

لم يشأ السحلاوي أن يعلن الخبر في المدينة وأوصى رجاله بالكتمان، ثم مضى من فوره إلى قصر الكوارشي الكبير فزف إليه النبأ السار وأخبره أن البصاص القاتل بين يديه. تهللت أسارير الكوارشي وظل يلهج بشكر الله وحمده وقال للسحلاوي: «مكافأتك ستكون كبيرة جدًّا.. أين الرجل؟». ضحك السحلاوي من خبر المكافأة ولم

يشأ أن يطلع الكوارشي على الكنز الذي استولى عليه وقال: «لم أفضل أن أحضره معي مخافة أن يلمحه جنود السلطان فيعودون به إلى السجن ويفلت الأمر من بين أيدينا». ثم أضاف: «الآن يمكننا أن نضرب أكثر من عصفور بحجر واحد، نستجوب المطجّن ونعرف مكان البندريّة ثم نقتله، فيسقط بذلك ركن مهم من أركان القضية ويعود إليك همَّام من سجنه يا سيدي، ونترك السلطان على اعتقاده بأن المطجّن قد عبر إلى مراكش كما أخبره صاحب الشرطة». استحسن الكوارشي الفكرة فخرج بصحبة السحلاوي ومضى تحت جنح الظلام صاعدًا الجبل في الطريق إلى قلعة الشمقمق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

ثلاثون سنة

في قلعة الشمقمق كانت الصورة دموية. المطجّن البصاص يرسف في الأغلال وجرحه الذي تكبده أثناء النزال على شاطئ النهر لا يزال طريًّا ينزف، فضلًا عن العذاب الذي قاساه على يد رجال السحلاوي بغية انتزاع اعترافه بمكان البندريّة. كان المطجّن يعلم أن البندريّة هي ضمانته الوحيدة للنجاة وأنه في اللحظة التالية لمعرفتهم بمكانها ستكون رقبته قد فصلت عن جسده. وعلى قدر شعوره بالحسرة لانهيار آماله في الثروة وفي الزواج من محبوبته إلا أنه كان يشعر بوجود أمل في الإفلات بحياته، لهذا صمد للتعذيب ولم يعترف.

دخل الكوارشي الكبير بصحبة السحلاوي وأبصر المطجّن ممددًا في ركن من الغرفة يتأوه من شدة الألم وأدرك أن التعذيب لم يأت معه بنتيجة فأقبل عليه قائلًا: «أي بُني.. ارأف بنفسك وارفق بي، إنني لا أحمل لك على كل ما فعلت بي ضغينة، ويمكنني أن أتفهم أسبابك. أنت قضيت بصحبتنا وقتًا طويلًا وكنت لي بمثابة الابن، كل ما أرجوه منك أن تخبرني بمكان ابنتي، وسأتركك ترحل، بل سأساعدك على مغادرة البلاد وسأزودك بالمال الذي يعينك على الحياة في أي مكان». عندما سمع المطجّن سيرة المال رفع رأسه وقال للكوارشي: «لا أريد مالك.. أريد كنزي الذي استولى عليه السحلاوي ورجاله وأريد ضمانًا بأنكم لن تقتلوني إذا دللتكم على مكان ابنتك، واعلم أن مرور الوقت يحمل خطرًا داهمًا على حياتها». انزعج الكوارشي ثم نظر نحو السحلاوي متسائلًا عن موضوع الكنز، فهمس له بأن المطجّن يهذي من شدة الضرب ويتخيل أشياء. قال الكوارشي: «أعدك بأن أحدًا لن يمسك وسأمنحك قدر ما تشاء من المال والجواهر، فقط تكلم». كان المطجّن لا يزال على حذره فأغلق فمه ولم يحر جوابًا. خرج الكوارشي بعد أن قال: «سأترك لك فسحة للتفكير وعليك أن تختار بين الموت والحياة».

جلس السحلاوي مع الكوارشي وحدهما يتدارسان الموقف وقد أدركا شدة مراس المطجّن وعزمه على احتمال العذاب، وأيقنا أنه لن يعترف ولو قاموا بتقطيع لحمه. قال الكوارشي: «أنا لا أبالي بفرار المطجّن.. كل ما يهمني هو عودة ابنتي». فرد السحلاوي: «لكننا إن تركناه قد يقع في يد السلطان البيكيكي ويعود إلى السجن من جديد، وفي هذا هلاك محقق لهمَّام إزاء إصرار المطجّن على الاعتراف ضده، أما في غيابه فقد يفقد الاتهام جانبًا معتبرًا من مقوماته وقد يلين قاضي القضاة ويفكر في كل عروض الرشوة التي قدمناها له.. ومن يعلم!». قال الكوارشي: «إذا تركناه يفر وساعدناه على هذا فسنحقق نفس النتيجة». تساءل السحلاوي: «وهل تضمن ألا يغدر بنا المجرم الآثم؟». قال الكوارشي: «أنا لا أضمن شيئًا لكن حياة ابنتي في خطر وكلما مضى الوقت ضعفت فرصتها في النجاة، ليس أمامي سوى قبول شروط المطجّن ومنحه ضمانات وسأراهن على أنه قد يكون محبًّا للفتاة وحريصًا على حياتها».

في الليلة نفسها كان الكوارشي يعبر البحر إلى مراكش وبصحبته المطجّن بعد أن وافق على كل شروطه ومنحه المال اللازم وأبعد عنه السحلاوي ورجاله. وعلى

الساحل أخبره المطجّن بمكان البندريّة ثم شد الرحال ومضى فابتلعه الظلام ولم يسمع به أحد بعد ذلك، بينما عاد الكوارشي مسرعًا حيث قام بتحرير ابنته وعاد بها إلى القصر.

لم يطل الوقت بعد ذلك، حيث نجحت محاولات الكوارشي، كما أثمرت جهود السلطان البيكيكي في دفع القاضي ابن عقيل لاتخاذ موقفًا لينًا من همَّام، ويبدو أن القصر الكبير المحاط ببستان الفاكهة والمطل على بحيرات الماء الموجود على أطراف مدينة السحاب، ذلك الذي أهداه الكوارشي لابن عقيل كان له مفعول السحر، كما أن رسائل التهديد التي وصلت للقاضي من السحلاوي ساهمت في حمله على المهاودة وعدم ركوب سكة الأخطار.. غير أن العامل الحاسم في الأمر خرج من مطبخ الكوارشي حيث أذاق الرجل الشريف قطعًا من القوزي المشوي والبعرور المتبل مع صينية من البلّورية المسقية بالعسل وأصابع زينب فضلًا عن البقلاوة بعجينة اللوز، وهو الأمر الذي نجح في تشكيل تصور جديد للعدالة لدى القاضي فأصدر حكمه المدوّي ببراءة همَّام بن عليش الكوارشي من تهمة المشاركة بالتحريض على قتل المغنية إيزابيلا وإطلاق سراحه، كما حكم على المطجّن البصاص غيابيًّا بالإعدام شنقًا! وبهذا أسدل الستار على القضية التي شغلت الناس في الأندلس، وأمكن للسلطان البيكيكي أن يتفادى الحرج مع الأمير فارس المختوم حاكم إمارة الساحل البندقي متسلحًا بحكم المحكمة ومحتميًا بقضاء السلطنة العادل النزيه الذي لا سلطان عليه لأحد! وفي الوقت الذي كان همَّام الكوارشي يغادر سجن الأدغم، كان الحسين والشيخ شهاب قد نجحا في حفر سرداب طويل وصل بهما إلى خارج السجن قرب الغابة.. ومن هناك بدأت رحلتهما الطويلة في الطريق إلى مصر للقاء حكامها من المماليك والتي كانا يعتقدان أنها الملاذ والأمل في إنقاذ ما تبقى من دولة الإسلام في الأندلس.

لم يكن من الممكن طبعًا أن تستمر الأحوال على ما هي عليه من فساد وخراب طال كل شيء، فبعد سنوات قلائل كان القشتاليون يدكّون البلاد ويستولون عليها ويأخذون في حمايتهم السلطان البيكيكي وعز الدين أنكش وهمَّام الكوارشي وعجينة والسحلاوي وسائر الحاشية التي اعتنقت النصرانية وعاشت في كنف الغزاة في نعيم مقيم.

وكان السلم المعقود بين إشبيلية وبين القشتاليين قد أخذ ينهار بعد أن قام الأهالي بالثورة على ابن الجد وقتله. وكان ابن الجد مثل السلطان البيكيكي مهادنًا للأعداء ومنفذًا لمشيئتهم ومؤديًا الجزية لهم. فلما قُتل غضب فرناندو الثالث وعقد العزم على غزو الولاية التي قتل أهلها صديقه وأصبحت معزولة بعد أن خاصمت محيطها العربي الإسلامي كله واحتمى حكامها بالإسبان. حاصر الملك فرناندو الحاضرة الأندلسية الكبرى وكان قد حصل على قرار من البابا بأن تخصص الكنيسة القشتالية والليونية ثلث إيراداتها للمساهمة في الحرب، ودخل الأسطول الإسباني إلى مياه مصب الوادي الكبير. وقد سجل التاريخ صفحات رائعة عن دفاع أهل إشبيلية وعن بسالتهم وعظيم تضحياتهم، وقام الإشبيليون بالالتفاف حول القائد الوطني «شقاف» وزميله «ابن شعيب» وقاوموا الغزاة ما وسعتهم المقاومة. لكن

المدينة كانت قد طوقت من البر والبحر. وكان من الأحداث المؤلمة التي تنفطر لها النفس وجود ابن الأحمر أمير غرناطة على رأس قوة من فرسانه إلى جانب القوات الإسبانية وذلك وفاء بتعهداته لملك قشتالة، وهكذا كان الأمير المسلم يشترك مع أعداء أمته في تطويق الحاضرة الإسلامية ومحاولة افتتاحها وتشريد أهلها وسحق دعوة الإسلام بها، ويفسر ابن خلدون هذا التصرف المشين بأن ابن الأحمر كان يرمي إلى الانتقام من أهل إشبيلية لأنهم خذلوه ونكلوا عن طاعته! وأثناء الحصار وفدت على المعسكر الإسباني طوائف كثيرة من الجند منها قوة من فرسان قطلونية بقيادة ألفونسو ولي عهد أراجون وقوة من فرسان بسكونية بقيادة «لوبيث دي هارو» وقوة من الفرسان البرتغاليين بقيادة «بيدرو» ولي عهد البرتغال وكثير من الأساقفة والرهبان وفرسان الجماعات الدينية. اشتد الحصار والجوع بأهل إشبيلية وأرسلوا يستنجدون بالأمراء في تونس والمغرب، وكان مما نظمه شاعر إشبيلية يومئذ إبراهيم بن سهل الإشبيلي وهو يستصرخ العرب لنجدة إشبيلية:

ردًا فَمَضمون نَجاحُ المَصدَرِ

هِيَ عِزَةُ الدنيا وَفَوزُ المَحشَرِ

يـا مَعشَـرَ العـربِ الَّذينَ تَوارَثوا

شِيَمَ الحِميَّةِ كابرًا عَن أَكبَرِ

أَنتُم أَحَقُّ بِنَصرِ دينِ نَبيِّكُم

وَبِكُم تَمَهَّدَ في قَديمِ الأَعصُرِ

بعد أن اشتد الحصار وفتك الجوع بأهل المدينة وعزّت الإمدادات سقطت المدينة ودخلها الإسبان فحولوا الجامع الأعظم إلى كنيسة وخرج نحو أربعمائة ألف إلى المنافي، وأصبحت إشبيلية بعدها عاصمة مملكة قشتالة ومقر البلاط بدلًا من طليطلة ومن بعدها قرطبة.

وهكذا خسر المسلمون في ثلاثين سنة فقط حواضرهم العظيمة التي ظلت منارات للعلم والفن والأدب والحضارة لأكثر من خمسة قرون، قرطبة ثم بلنسية ثم جيّان وبعدها إشبيلية ثم مرسية.. ثلاثون سنة من الخراب والحكم الفاسد وموالاة الأعداء والانشغال بالنساء الشقر قضت نهائيًّا على دولة الإسلام في شرق ووسط وغرب الأندلس ولم يتبق سوى غرناطة في الجنوب، تلك التي صمدت.. إلى حين.

أسامة غريب كاتب صحفي وروائي، درس الإعلام في جامعة القاهرة. اشتهر بالكتابة الساخرة وأدب الرحلات. لقي كتابه الأول «مصر ليست أمي..دي مرات أبويا» حفاوة كبيرة من القراء حتي أنه طبع ستة عشر مرة.. يكتب في عدد من الجرائد منها: جريدة الدستور المصرية، جريدة الوطن الكويتية. تقوم كتابته على المزج بين النقد السياسي وأدب الرحلات والسخرية وهو المزيج الذي كتب به كتابه التالي «أفتوكالايزو» الصادر عن دار الشروق ٢٠٠٩.

عمرو الكفراوي رسام ومصمم لأغلفة الكتب، قام بتصميم العديد من الكتب لدور نشر مصرية وعربية كما حصل على عدة جوائز في صالون الشباب بمصر أهمها جائزة جمعية نقاد الفن التشكيلي عام ٢٠٠٥، والجائزة الأولى للصالون عام ٢٠٠٩.

شارك الكفراوي في العديد من المعارض الفردية والجماعية بمصر وخارجها أهمها: «نقاط سوداء» بجاليري «أرت اللوا» مصر، «عشرة وجوه» بمركز «فاريرا للفنون» بإسبانيا، «بجانب البحر» بجاليري «دوجف للفن المعاصر» بولندا، «الفن المصري المعاصر» كوبا، معرض «صالون الشباب» بمركز «دارة الفنون» الأردن، «الحضور الخفي» بمتحف «سماعخانه» مصر، كما انجز عدد من اللوحات والرسوم التوضيحية لبعض الكتب مثل كتاب «مقتنيات وسط البلد».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

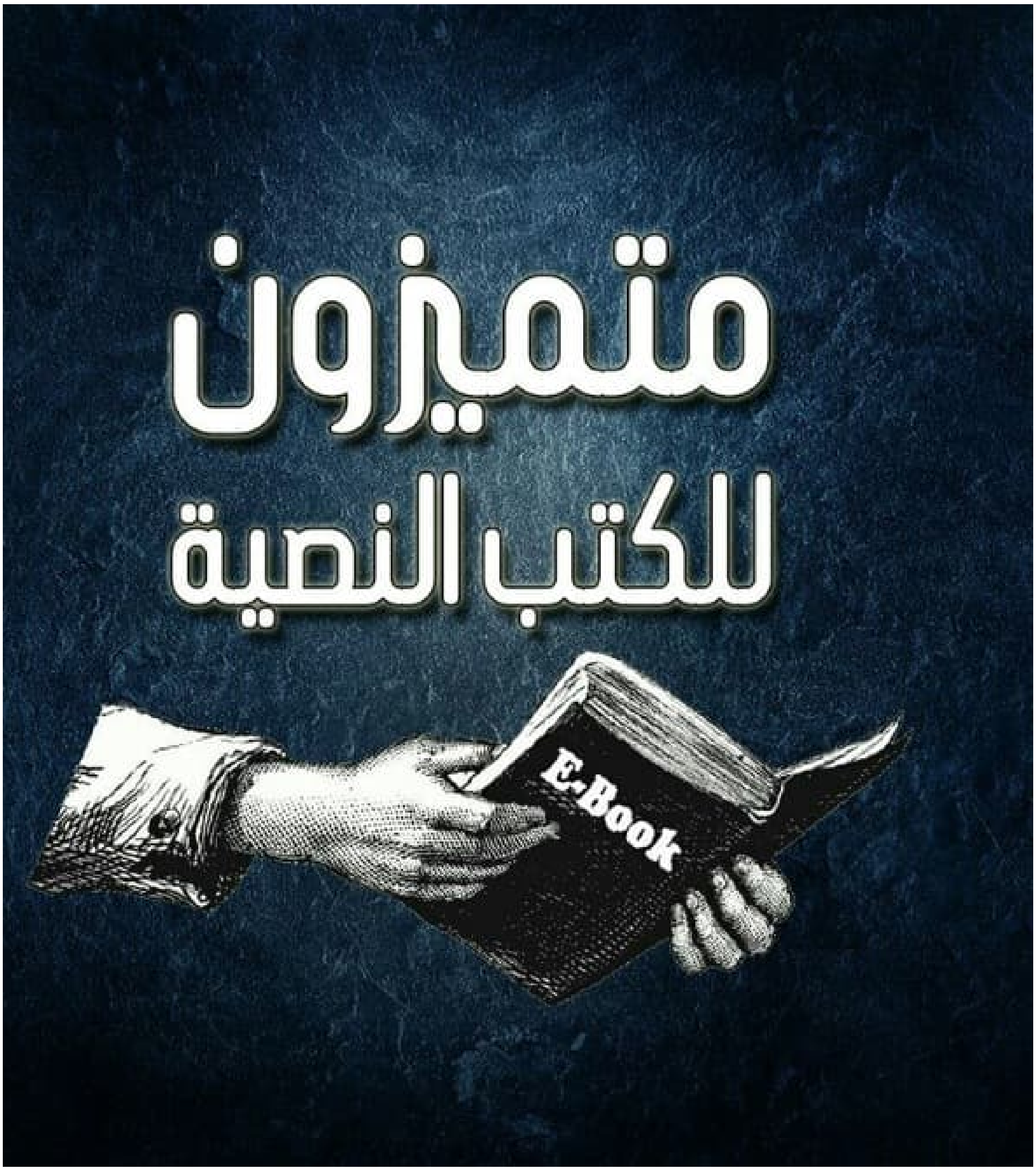
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

إهداء..

مقدمة

غرام وانتقام

ماذا بعد القبض على المطجّن والكوارشي؟

المحاكمة

الكنز

السحلاوي.. رجل قلعة الشمقمق

عز الدين أنكش والعلقم المر

عجينة.. فضيلة الخليع

لقاء القتلة

حبيبتي يا إيزابيلّا.. حبيبي يا عليش

مغامرة المطجّن ومؤامرة الوزير.. الغالي

حكاية الشيخ شهاب مع لوسي الوزير

سليمان كاورْك.. ذو الوشاح البرتقالي

العالِم.. والقرد

الملكة فيولانتي.. والبعرور

هروب المطجّن البصاص

كهف العفريت

أحلام المطجّن البصاص

درب الذئاب

وا بيكيكيّاه.. وا إسلاماه

بين قصر الكوارشي وسجن الأدغم

مخاوف عز الدين أنكش

ليلة القبض على المطجّن

ثلاثون سنة